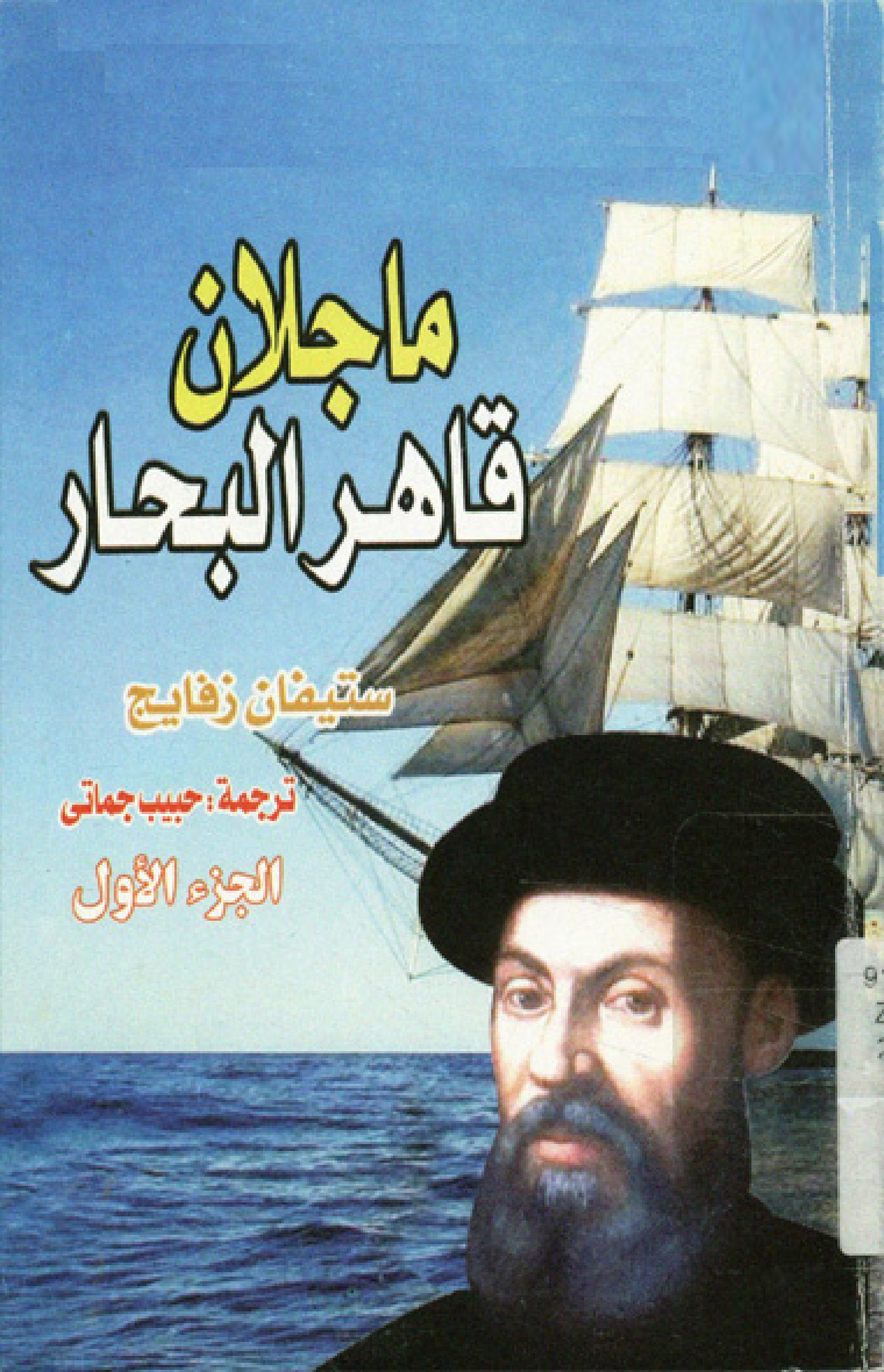


ماجلان قاهر البحار

ستيفان زفايج

ترجمة: حبيب جماتي

الجزء الأول

مجاناً مع جريدة الإتحاد





■

رئيس التحرير
فرياد راوندوزي

■

موبايل ٠٧٩٠١٣١٠٢٣٢
هاتف ٥٤٣٨٩٥٨-٥٤٣٨٩٥٤
E-mail:lttihadpress@yahoo.com

سلسلة شعبية تعيد إصدارها

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق- ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy
لبنان -بيروت- الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb
العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣-٧١٧ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com



٤٨

ستيفان زفايج

ماجلان
قاهر البحار

ترجمة: حبيب جاماتي

طبعة خاصة
توزع مجاناً مع جريدة (الاتحاد)

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٨

الطبعة الأولى
١٩٥١

مؤلف الكتاب

كان «ستيفان زفايج» مؤرخاً دقيقاً واسع الإطلاع، روائياً واسع الخيال قوي الأسلوب، وعالماً نفسياً فهم الطبيعة البشرية ووقف على الكثير من أسرارها واتجاهاتها وكان إلى ذلك كله فناناً مرهف الحس، يعشق الجمال ويؤمن بعظمة الإنسان وقيمة النفس البشرية. ومن هنا، كان يبغض «الدكتاتورية» في صورها المختلفة الظاهرة والخفية، ويتألم أشد الألم لأساليب العنف والظلم والاضطهاد.

لقد كان «زفايج» يأمل أن يرى عناصر الخير تنمو وتزدهر كلما تقدم ركب المدنية وموكب الحضارة. ولكنه رآها تتضاءل وتنكمش ـ أو هكذا قيل له ـ ورأى الجمال يشوه وكرامة الإنسان تهدر، فضاقت نفسه بالحياة، وأظهر تبرمه بها في كثير من المناسبات.

ولد «زفايج» في النمسا، وتعلم في فينا. وفي عام ١٩٣٨، فر إلى إنجلترا، بعد أن سئم العيش في الجو الخانق الذي أشاعه هتلر في بلاده. ورحبت به إنجلترا... والتف حوله عدد كبير من الأنصار والأصدقاء والمعجبين، ولم يلبث أن تجنس بالجنسية البريطانية.

ولكنه سافر فجأة إلى البرازيل ـ وكان حينذاك يكتب كتاباً عن بلزاك ـ دون أن يدري أحد سر هذا السفر المفاجئ. ولعله ضاق بالعمل في إنجلترا أيضاً، بعد أن أقضت الطائرات الألمانية مضاجع الأهلين فيها. ولم ينقض عليه عامان، بالبرازيل، حتى وجد ذات يوم منتحراً في مسكنه ببلدة «ريو دي جانيرو».

وبرغم ما صادفه «زفايج» في حياته من متاعب، فإن إنتاجه الأدبي كان وفيراً. وقد عني بصفة خاصة بكتابة السير وتواريخ الحياة. وأشهر هذه الكتب، الكتاب الذي نقدمه اليوم للقراء، و«ماري انتوانيت» و«ماري استيوارت» ملكة اسكتلندا، و«فوشيه» و«بلزاك» و«غاريبالدي».

لقد كان يختار الشخصيات التي يكتب عنها في مختلف البلدان وفي فترات مختلفة من التاريخ. وهو حين يكتب عنها، يصورها تصويراً صادقاً شائقاً، ويضع الحقائق التاريخية المتصلة بها في قالب روائي ممتع.

ومن أروع القصص الطويلة التي كتبها، قصة «حذار من الشفقة». وهي قصة ضابط نمساوي تزوج من فتاة مشوهة، ليس بدافع الحب وإنما بدافع الشفقة. وقد حلل الكاتب نفسية الزوجة تحليلاً قوياً بديعاً، يبرز براعته في التحليل والتصوير. وله أيضاً كتاب بعنوان «كاليرسكوب» يحوي مجموعة من القصص القصيرة الشائعة.

في سبيل التوابل

كانت التوابل هي الهدف الأول للرحلات الشاقة الطويلة التي يقوم بها التجار الغربيون إلى الشرق. فمنذ ذاق الرومان في أثناء غزواتهم طعم التوابل الشرقية المختلفة، بين حارة ومخدرة، ولاذعة ومسكرة، أخذ استعمال هذه التوابل في إعداد الطعام ينتشر بين أهل الغرب حتى صار ذلك عادة متمكنة يصعب إقلاعهم عنها.

وكان الأوروبيون في القرون الوسطى يجهلون الليمون الحامض، وكان كبارهم وأغنياؤهم يرون أن لذة الطعام في الإكثار منه، ثم تبين لهم فجأة أن نزراً يسيراً من البهار أو القرفة أو الزنجبيل أو غيرها من التوابل يكفي لإكساب الطعام نكهة لذيذة لا عهد لهم بها من قبل. فأصبحوا لا يقبلون على غذاء ما لم يمزجوه بالتوابل الشرقية، بل صاروا يخلطون شرابهم بها أيضاً!

وكان ثمة هدف آخر لتلك الرحلات، هو الحصول بجانب تلك التوابل اللازمة للطعام، على أنواع العطور العربية الجديدة من المسك والعنبر وماء الورد وغيرها، مما اشتدت إليه حاجة النساء في ذلك العصر، بل شاركتهن الكنائس في الحاجات إلى تلك المنتجات الشرقية، بحكم استهلاك كميات كبيرة من أنواع البخور التي تجلب من بلاد العرب، بالطرق البحرية أو البرية الطويلة.

وكذلك كان الصيادلة الأوروبيون في حاجة إلى «العقاقير الهندية» كالأفيون والكافور والصمغ، وقد علمتهم التجارب من زمن بعيد أن عملاءهم قد يشكون في فائدة أي بلسم أو دواء لا تكتب على زجاجته بالحروف الزرقاء عبارة «وارد من

الهند» أو «وارد من بلاد العرب» ذلك لأن كل ما هو شرقي في ذلك الحين كان خليقاً أن يبهر عقول الأوروبيين ويعمل في نفوسهم عمل السحر، إما لبعد الشقة بينهم وبينه، وإما لندرة الشيء الشرقي وغرابته عندهم، وقد يكون ذلك أيضاً لارتفاع ثمنه.

وهذا الإقبال على واردات الهند جعل أسعارها باهظة، حتى إن البهار، الذي نجده الآن في كل مكان، كان يباع بالحبة الواحدة، ويساوي وزنه فضة! وكانت قيمته المادية عند بعض الحكومات كقيمة المعادن الثمينة، فيدفعه الناس ثمناً لأراض يشترونها، أو بائنة للعروس! بل كانت الحكومات تتخذه أساساً لميزانية وارداتها، وكان الناس يصفون الغني في تلك العصور بأنه «كيس بهار!». وكانوا يزنون الزنجبيل وقشر البرتقال والكافور بميزان الصيادلة أو الصاغة بعد أن يحكموا غلق الأبواب والنوافذ، لكيلا تعبث نسمة من الريح عابرة بالمسحوق الثمين فتضيع منه ذرات!

ولا شك في أن صعوبات النقل وأخطاره في ذلك الحين، كان لها أكبر الأثر في ارتفاع أسعار السلع الشرقية، فالمسافة الشاسعة بين الغرب والشرق كان الإقدام على قطعها ضرباً من المغامرة، لكثرة العقبات والأهوال التي كانت تعرض للسفن والقوافل في الطريق، في وقت تفشت فيه الحروب وأعمال القرصنة!

وما أروع المراحل التي كانت تجتازها الحبة التافهة، أو الزهرة الصغيرة، منذ قطفها من شجرتها الخضراء في جزر الملايو، حتى وصولها إلى ميناء السلام، وإلى حانوت البقال الأوروبي. ومن هنا كانت القرفة والقرنفل وجوز الطيب والبهار وغيرها مما تحفل به الأرض في تيدور وأمبوانا وبندا وملابار وجزر الملايو، لا يساوي القنطار منها هناك ما تساوي حفنة منها في الغرب. وذلك لأنها قبل أن تصل ـ عبر البحار أو الصحارى ـ إلى يد المشتري تتداولها أيدي كثير من طلاب الربح والاستغلال. فالعبد الذي يقطف الأزهار في الملايو وينقلها على ظهره إلى السوق في قفة من قشور الشجر، لم يكن يتناول على هذا أجراً، وكذلك كان سيده يكتفي في بيعها بربح لا يكاد يستحق الذكر. ولكن التاجر الذي يشتريها بهذا الثمن الزهيد، يفرض لنفسه عند بيعها ربحاً يوازي ما يكلفه من الجهد نقلها في سفينة صغيرة خلال ثمانية أيام أو عشرة أو أكثر، من جزر ملوك إلى ملقة. ثم يأتي بعد ذلك دور التاجر الذي ينقلها إلى الهند في سفينة أكبر، وهو لا يستطيع الإبحار بها من الميناء إلا

بعد أن يؤدي ضريبة فادحة يفرضها عليه سلطان ملابار، ثم يظل ينتقل بها في سفينته من مرفأ إلى آخر، في رحلة تدوم شهوراً، مؤدياً الضريبة المفروضة في كل منها، فإذا سلم بعد ذلك من وهج الشمس المحرقة، أو الزوابع والأعاصير، فقليلاً ما يسلم من القراصنة. حتى إن سفينة على الأقل من كل خمس سفن كانت تذهب فريسة الزوابع أو القراصنة في الطريق!

وحينما تصل السلعة إلى ميناء هرمز على الخليج العربي، أو إلى ميناء عدن على البحر الأحمر، فإن أبواب بلاد فارس أو بلاد العرب السعيدة تفتح أمامها. غير أن نقلها عبر هذه ليس أقل خطراً من نقلها في المرحلة السابقة، فلابد من شهور أخرى تستغرقها الرحلة الجديدة على ظهور الجمال المحملة بأكياس البهار وجوز الطيب وما إليها من السلع عبر بحار مترامية من الرمال والقفار والمفاوز، إلى أن يقدر لها الوصول إلى بيروت أو طرابزون، مارة بالبصرة وبغداد ودمشق - تلك الأسماء التي تعيد إلى الأذهان ذكرى «ألف ليلة وليلة» - أو الوصول إلى القاهرة مارة بميناء جدة. وهي خلال هذه المرحلة تسلك طرقاً قديمة جداً، يعرفها التجار منذ عهد الفراعنة. ولكن لصوص الصحراء أيضاً يعرفونها، ويتربصون فيها بالقوافل يهاجمونها ويسلبونها ثمرة تعبها. ومن أفلت من أيدي البدو، وقع في أيدي الحكام الذين يفرضون رسوماً باهظة على كل جمل وكل كيس. وهكذا يصل ما يبقى من تلك السلع إلى ميناء الإسكندرية، وقد صار ثمنها أضعافاً مضاعفة!

على أن هناك أخطاراً وعقبات ونفقات جمة لابد أن تعرض لها هذه السلع بعد ذلك في طريقها من الإسكندرية إلى أوروبا، أهمها أن جمهورية البندقية بعد أن قضت بفضل أسطولها الكبير على مزاحمتها «بيزنطة»، أصبحت تحتكر تجارة التوابل التي تنقل إلى مرفأ البندقية، حيث تعرض في سوق «الريالتو» لتباع في مزاد علني للوسطاء الألمان والفلامنديين والإنجليز، ثم تودع في مركبات متينة تزحف بها، خلال الجبال والثلوج، لتصل أخيراً إلى البقالين والمستهلكين.

والواقع برغم هذا كله أن تجارة واردات الشرق كانت في العصور الوسطى أوفر أنواع التجارة ربحاً. وقد شيد كثير من التجار الأوروبيين قصوراً شامخة عاشوا فيها عيشة الملوك من أرباح تلك الواردات!

هذا، وقد نظر أهل «جنوى»، والفرنسيون، والإسبانيون، بعيون الحسد إلى «البندقية» التي احتكرت هذه التجارة، كما حقدوا على التجار العرب والترك، لأن

كل تجارة بين الهند وبلاد الروم لم يكن بد من أن تمر في أيديهم، بعد أن حرم اجتياز البحر الأحمر على كل سفينة أو تجارة مسيحية، فأفقد هذا أولئك التجار الأوروبيين جانباً كبيراً من أرباحهم من تلك السلع، ونقل إلى الشرق كثيراً من المعادن الثمينة التي تدفع في الغرب ثمناً لها.

* * *

ولعل هذا ما حفز الغرب إلى العمل للتخلص من تلك الرقابة الشرقية. فكانت الحملات الصليبية التي تحالفت فيها دول الغرب المسيحي لانتزاع الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين، وللوصول في الوقت نفسه إلى الهدف الأهم لهذه الحملات وهو تحطيم السد الحائل دون البحر الأحمر، وفتح أسواق الشرق أمام التجار الأوروبيين!

ولما خمدت الحروب الصليبية، وفشل الغرب في الاستيلاء على مصر، ولبث العالم الإسلامي قابضاً على طريق الهند، بات لزاماً على الغرب إيجاد طريق آخر لتجارته يكون حراً مستقلاً.

وعلى هذا يمكن القول بأن هذه الرغبة نفسها كانت أهم العوامل التي دفعت «كولومبوس» إلى الغرب، و«برتولوميو دياز» و«فاسكو دي جاما» إلى الجنوب، و«كابو» إلى الشمال نحو أرض لابرادور... في سبيل استكشاف مسالك بحرية.

ولا خلاف على أهمية الدوافع الدينية والفكرية، ولكن الدوافع المادية هي الحاسمة في المشروعات العظمى. ولو لم يكن الذين ساعدوا كولومبوس وماجلان وغيرهما موقنين أنهم سيجنون ثمرة مساعدتهم أضعافاً مضاعفة، لما أقدموا عليها. فوراء تلك المغامرات، كان التجار يقفون ويشجعون.

وكانت التوابل هي الهدف الأول لكل هذه المشروعات والمساعدات!

عبقرية مبكرة

كانت البرتغال في ذلك العصر حديثة عهد بالاستقلال وقد ظفرت به بعد طول جهاد ونضال، ثم انطلقت لتؤدي نصيبها من الرسالة الأوروبية، باحثة عن منفذ لنشاطها.

ولم يكن في وسع البرتغال وهي بلاد صغيرة فقيرة، أن توسع حدودها البرية إذ كانت هذه الحدود مشتركة مع جارتها الشقيقة إسبانيا. فلم يبق إلا أن تتوسع من ناحية البحر، بالتجارة والاستعمار. ولكن مركزها الجغرافي في ذلك الحين كان أسوأ مركز بين الأمم البحرية الأوروبية. وذلك لوقوعها على ساحل المحيط الإطلنطي، الذي ساد الاعتقاد حينذاك - طبقاً لنظرية بطليموس - بأنه خضم من الماء لا نهاية له ولا سبيل لعبوره! كما أن الطريق إلى الجنوب كانت تبدو مغلقة - طبقاً للنظرية - نفسها، لتعذر طواف السفن حول الأصقاع الممتدة على طول السواحل الإفريقية الخالية من السكان، والتي تمتد حتى القطب الجنوبي دون أن يكون فيها أي منفذ لمرور السفن!

على أن أميراً عبقرياً من أمراء البرتغال، سمت به همته إلى التفكير في إخضاع المستحيل وجعله ممكناً. فقد انتهى التفكير بذلك الأمير إلى الشك في صحة نظرية بطليموس، وزاد في شكه هذا أن أمواج المحيط الأطلنطي كانت تحمل أحياناً من الغرب إلى سواحل البرتغال قطعاً غريبة من الخشب، فرأى أنها لابد أن تكون آتية من بلاد مجهولة لم تستكشف بعد. ولاح له أن أفريقيا قد تكون آهلة

بالسكان، وقد يمكن من طريقها بلوغ المحيط الهندي، فبلوغ الهند والحصول على سلعها التي تدر الأرباح الطائلة!

وعلى أساس هذه الفكرة، وقف الأمير هنريك، ابن ملك البرتغال وابن أخت ملك الإنجليز، كل جهوده لاستكشاف ذلك الطريق الجديد إلى الهند عبر المحيط الإطلنطي.

وقد أطلق التاريخ على هذا الأمير لقب «الملاح» مع أنه لم يركب البحر إلا مرة في حملة عسكرية على مدينة سبتة، سنة ١٤١٢. ولكنه خصص ثروته كلها للملاحة والملاحين، وزهد في أرفع المراتب التي تؤهله لها مكانته، مؤثراً العزلة في «رأس سكريز» حيث بقي خمسين سنة يعد العدة لتلك الرحلة الأولى من نوعها في العالم كله!

ولا يدري أحد على التحقيق كيف نبتت هذه الفكرة العجيبة في ذهن ذلك الأمير المغامر الجريء، ولا كيف اعتقد عكس ما كان يدعيه علماء الجغرافيا في ذلك العهد من أن أفريقيا ملتصقة بالقطب الجنوبي ولا يمكن الطواف حولها؟

وقد كانت هناك رواية تاريخية رائجة في عصره، قرأها الناس في مؤلفات هيرودوتس وسترابون - مؤداها أن عمارة من السفن الفينيقية، هبطت جنوباً في البحر الأحمر في عهد الفراعنة، ثم عادت بعد سنتين بطريق أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق). وقد يكون الأمير البرتغالي قد سمع من تاجر مغربي أن وراء البادية الليبية والصحارى الرملية تمتد «بلاد الغنى»، فإن بلاد «غينيا» قد ذكرت بهذا الاسم وبدقة كبيرة في خريطة وضعها جغرافي عربي سنة ١١٥٠ إجابة لرغبة الملك روجيه الثاني النورماندي. وعلى هذا، قد يكون الأمير هنريك أوسع إطلاعاً على جغرافية أفريقيا، بفضل المعلومات التي جمعها، من أولئك الجغرافيين الرسميين الذين كانوا يؤمنون بصحة نظريات بطليموس، ويصفون مؤلفات ماركوبولو وابن بطوطة، بأنها مجموعة أكاذيب!

لم يبق من القصر الذي شيده هنريك في رأس سكريز غير جدران متداعية، وانه ليصعب معرفة الطريقة التي اتبعها الأمير في إعداد خطط فتوحاته وأسفاره من المعلومات القليلة التي وصلت إلينا، يغلب على الظن أنه جمع طائفة من الكتب والخرائط من جميع أنحاء العالم، ودعا إليه جماعة من العلماء والجغرافيين العرب. وكان يسأل كل ربان وكل بحار عائد من سفره، ثم أفرغت تلك المعلومات كلها في ملفات خاصة، وبعد أن نظم الأمير رحلات متوالية، انصرف إلى تحسين صناعة

السفن. وفي بضع سنوات، شغلت مكان القوارب الصغيرة ـ التي كانت شائعة حينذاك ـ مراكب متينة حمولتها ثمانون طناً أو مائة طن، أي في وسعها اقتحام البحر في اضطرابه. ولما كان هذا النوع الجديد من السفن يتطلب بحارة من نوع جديد كذلك، فقد أعد هنريك أخصائيين في فن الملاحة. وهكذا دعم الأمير الناحية النظرية بالناحية العملية، فظهر جيل جديد من الملاحين والمكتشفين، دلت البوادر على أن مستقبلهم سيكون مجيداً. وكما أن فيليب المقدوني قد ترك لابنه الإسكندر جيشه الذي لا يقهر ليفتح به العالم، فإن الأمير هنريك قد ترك للبرتغال أسطولاً حديثاً، هو خير الأساطيل في ذلك العهد يعمل عليه ملاحون مهرة يتحفزون لقهر المحيط.

ولكن الأقدار تشاء دائماً أن يموت السابقون وهم على أبواب أرض الميعاد قبل أن يروها. فإن هنريك لم يشاهد اكتشافاً واحداً من تلك الاكتشافات التي خلدت اسم وطنه. ففي السنة التي مات فيها ـ أي في سنة ١٤٦٠ ـ لم تكن قد ظهرت بعد نتيجة واحدة عملية في ميدان الجغرافيا. ولم يكن اكتشاف جزر آسور وماديرا غير تجديد اكتشاف سابق، فقد أشار لورنتينو في سنة ١٣١٥ إلى وجود هذه الجزر. وإذا كانت القوارب المعروفة باسم «ناووس» قد تقدمت على سواحل إفريقيا الغربية، فإنها لم تصل ـ في نصف قرن ـ إلى خط الاستواء.

وقد نجحت في ذلك العهد تجارة غير مشرفة هي تجارة الرقيق، فكان الزنوج يخطفون جماعات وأفراداً على شاطئ السنغال، ويباعون عبيداً أرقاء في أسواق لشبونة. وعثر الملاحون أيضاً على قليل من تراب الذهب... هذا كل ما رآه هنريك من المشروعات التي وضع خططها.

غير أن النتيجة الحاسمة قد تحققت فعلاً. فإن تقدم الملاحة البرتغالية لا يقدر بنسبة المسافات التي اجتازتها السفن، بل بالأثر الأدبي الذي أحدثه ذلك التقدم، واشتداد الميل إلى الأعمال العظيمة، والقضاء على خرافة خطرة. فقد تناقل رجال البحر، خلال الأجيال السابقة، أن الملاحة مستحيلة بعد رأس «نون» الذي يبدأ عنده «بحر الظلمات الأخضر» والويل للسفينة التي تجازف بمواصلة السير إلى تلك المجاهل المميتة. فهناك تشتد حرارة الشمس حتى تغلي المياه وتندلع النار بجوانب السفينة وأشرعتها. والمسيحي الذي يجرؤ على دخول «بلاد الشيطان» القفراء، يمسخ في الحال فيصبح زنجياً. وقد تدخل البابا في الأمر فدعا الناس إلى العمل مع هنريك.

ويا له من ظفر، يوم أقدم جيل أيانس، سنة ١٤٣٤، على اجتياز رأس نون،

وكتب يقول: «إن العالم الكبير بطليموس مخرف عجوز، وان الملاحة في مياه غينيا سهلة، والبلاد جميلة فائقة الثراء». وهكذا تم تجاوز «النقطة الميتة» ولم يعد البرتغال في حاجة إلى بذل الجهود للحصول على بحارة له. فقد توافد عليه هواة المخاطرات والمغامرون من جميع البلدان ووضعوا أنفسهم في خدمته. وكانت كل رحلة جديدة ناجحة تشجع الملاحين. فوجد جيل جديد من الرجال الشبان الذين امتلأوا إقداماً وحباً في المغامرة.

ولهذا، فإن موت هنريك لم يكن غير وقفة قصيرة قبيل الوثبة الكبرى. فما إن تبوأ الملك جوان الثاني العرش، حتى بدأ نهضة جديدة فاقت كل الآمال. فالعمل الذي كان يسير بطيئاً من قبل أصبح الآن يخطو خطوات الجبابرة.

ففي سنة ١٤٧١، وصلت سفن البرتغال إلى خط الاستواء. وفي سنة ١٤٨٤، نزل ديجو كام عند مصب نهر الكونغو. وفي سنة ١٤٨٦ تحقق حلم هنريك، فوصل البرتغالي برتولوميو دياز إلى طريق أفريقيا الجنوبي: رأس الرجاء الصالح، الذي أطلق عليه قبلاً «رأس الزوابع».

وعلى الرغم من أن الزوابع مزقت أشرعته، فإن الفاتح المقدام قد واصل طريقه، حتى بلغ الساحل الشرقي، حيث يمكن أن يرشده الربابنة المسلمون إلى طريق الهند. ولكن رجاله ثاروا عليه، وصاحوا قائلين: «حسبنا ما قطعناه هذه المرة»، فاضطر دياز أن يعود أدراجه دامي القلب تاركاً لأوروبي آخر شرف شق الطريق إلى الهند. وهذا ما فعله فيما بعد البرتغالي فاسكو دي جاما.

وللمرة الأولى، وضحت معالم إفريقيا الجغرافية. وثبت أن بطليموس غير صادق، فإن هناك طريقاً بحرياً يؤدي إلى الهند. وهكذا حقق تلاميذ هنريك الحلم الذي داعبه في حياته، بعد موته بست وعشرين سنة!

وتطلع العالم بعين الدهشة والحسد إلى ذلك الشعب الصغير، القابع في طرف أوروبا الذي أصبح بين يوم وليلة أول دولة بحرية في العالم، وكسب بنشاطه أقاليم جديدة، بل قارات كاملة. ولم تمر عشرة أعوام، حتى تكون أصغر دولة في أوروبا قد بسطت سلطانها على مساحات أوسع مما كانت عليه الإمبراطورية الرومانية في أوج سلطانها.

وبات الجميع يرقبون آخر الأنباء الصادرة عن لشبونة. وأدركت أوروبا أن الاكتشافات الجديدة ستغير معالم الكون أكثر مما فعلت الحروب والمدافع، وأن عهد العصور الوسطى قد ولى، وبدأ عهد جديد ينشأ في نطاق أوسع!

ولكن حادثاً مقلقاً طرأ فجأة فوقف ذلك الزحف الظافر. فإن طريق «الدنيا الجديدة» قد أصبحت مفتوحة من الشرق، وخيل للملك جوان أن عرش الهند وكنوزه قد غدت ملكاً له. ومنذ اليوم الذي تجاوز فيه البرتغاليون رأس الرجاء الصالح، لم يعد في وسع أحد أن يسبقهم أو يلحق بهم في الطريق الذي سلكوه، فالأمير هنريك قد احتاط للأمر، وحصل من البابا على مرسوم بتمليكه جميع القارات والبحار والجزر التي يكتشفها البرتغاليون فيما وراء رأس بوجادور. وأقر هذا المرسوم ثلاثة بابوات آخرون، ووافقوا على تلك الهبة العجيبة التي جعلت البيت المالك البرتغالي صاحب الشرق المجهول وملايين السكان الذين فيه!

ذلك هو الضمان الذي كان الملك جوان يحمله. ولهذا، فإنه أحجم عن المغامرات الجديدة وأعرض عن ذلك الرجل المجهول الذي جاء من جنوى يطلب عمارة من السفن للبحث عن طريق الهند من الغرب! نعم، لقد استقبل الملك ذلك الرجل - خرستوفور كولومبو - في قصر لشبونة، ولم يرفض طلبه بجفاء، ولكن المسألة وقفت عند هذا الحد، فالناس كانوا يذكرون أن جميع المحاولات التي بذلت للوصول إلى جزر أنتيل وإلى البرازيل - التي لابد أن تكون واقعة في مكان ما إلى الغرب، بين أوروبا والهند - قد أسفرت عن فشل ذريع. ثم، ما الداعي إلى المغامرة بالأموال البرتغالية في البحث عن طريق الهند من الغرب، مادامت الطريق من الشرق قد فتحت، ومادامت مصانع السفن في نهر التاج تجهز العمارة التي ستبحر قريباً إلى الهند مباشرة بطريق رأس الرجاء الصالح؟

ولهذا، فإن الخبر الذي أذيع فجأة، بأن كولومبو قد اجتاز بحر الظلمات لحساب إسبانيا، وبلغ اليابسة من الغرب بعد رحلة لم تدم أكثر من ثلاثة أسابيع، كان له في قصر الملك جوان وقع الصاعقة!

إذن، لقد جاء اليوم الذي مزق فيه الستار عن سر المحيط! نعم، إن كولومبو لم يدرك أنه اكتشف دنيا جديدة. وقد ظل هذا الرجل الغريب العنيد، حتى آخر ساعة من حياته، يؤكد أنه نزل في أرض آسيا، وأنه إذا واصل السير غرباً سيبلغ نهر الكنج بالهند! وذلك ما بعث الرعب في نفوس البرتغاليين. فأية فائدة بعد الآن لمرسوم البابا، الذي منح البرتغال جميع البلدان الواقعة في طريق الهند من الشرق، إذا كانت إسبانيا قد سبقته من الغرب، وانتزعت منه الهند! إذن، لابد من الالتجاء إلى السلاح للاحتفاظ بحقوق البرتغال في الهند، ومنع تدخل الجارة المزاحمة في الأمر!

لكن البابا حال بين الفريقين والحرب. ولما كانت الدولتان ـ إسبانيا والبرتغال ـ أحب الدول إلى قلبه لأنهما أكثر الدول طاعة له، فقد قسم بينهما مناصفة جميع بلدان العالم المجهولة!

لقد شطر البابا الكرة الأرضية شطرين متساويين بالمرسوم الصادر في ٤ مايو سنة ١٤٩٣. فجميع البلدان الواقعة في غرب الجزر الخضراء تخص إسبانيا. وجميع البلدان الواقعة في شرقها تخص البرتغال. ورضيت الدولتان بهذا التقسيم بادئ الأمر. ولكن البرتغال عادت فطلبت تعديله، بحيث يميل خط التقسيم إلى الغرب، ووافق البابا على هذا. وكانت النتيجة أن أصبحت بلاد البرازيل عندما اكتشفت من نصيب البرتغال!

ومهما يكن هذا الحل سخيفاً، لأنه يقسم العالم كله بين دولتين فقط، إلا أنه حال دون نشوب حرب بين إسبانيا والبرتغال بضعة قرون.

ولكن، أين الجزر التي تنتج التوابل، والتي يتوق المكتشفون إلى العثور عليها ؟ أهي واقعة في غرب خط التقسيم أم في شرقه؟ أهي من نصيب إسبانيا أم من نصيب البرتغال؟ هذا ما يجهله الجميع: البابا، والملوك، والعلماء. وفي انتظار نتيجة البحث، انصرفت إسبانيا إلى ابتلاع أمريكا، والبرتغال إلى ابتلاع إفريقية والهند.

أثار نجاح كولومبو دهشة لا حد لها في أوروبا، واستولى على الناس ميل جنوني إلى المغامرة، فإن نجاح شخص واحد يثير دائماً شجاعة معاصريه... فجميع الناس يريدون الآن الذهاب إلى العالم الجديد. وأخذ الحكام والتجار يجهزون السفن. وقد كان هنريك من قبل يلجأ إلى البابا لحث البحارة على العمل في سفنه. أما الآن فإن سكان القرى يزحفون جموعاً على الموانئ. والرحلات البحرية تتابع بلا انقطاع. وفي خلال عشرين أو ثلاثين سنة، ستكتشف السفن الصغيرة التي أقلعت من قادش وبالوس ولشبونة ما لم تكتشفه البشرية في العصور الخوالي.

ما أعجب تقويم تلك الحقبة من الزمن: ففي سنة ١٤٩٨، بلغ فاسكو دي جاما أرض الهند ونزل في كلكوتا، باسم ملك البرتغال. وفي السنة ذاتها، وصل كابو، القائم بخدمة ملك إنجلترا، إلى جزيرة الأرض الجديدة وبلغ الساحل الأمريكي. وفي السنة التالية، اكتشف بنزون لحساب إسبانيا، وكبرال لحساب البرتغال، أرض البرازيل، واكتشف كورتريال أرض لابرادور من جديد.

وفي السنوات الأولى من القرن التالي، تتابعت الفتوحات... هبطت حملتان برتغاليتان بمحاذاة ساحل أمريكا الجنوبية حتى ريو دي لابلاتا. واكتشف البرتغاليون جزيرة مدغشقر في سنة ١٥٠٦ وجزيرة موريس في سنة ١٥٠٧، وفي سنة ١٥٠٩ بلغوا ملقة واستولوا عليها في سنة ١٥١١ وبذلك قبضوا على مفتاح جزر الملايو. وفي سنة ١٥١٢ دخل بونس دي ليون شبه جزيلة فلوريدا. وفي سنة ١٥١٥ كان نونينز دي بلباو أول أوروبي أطل على المحيط الهادئ من أعالي داريان. ومنذ ذلك الحين عرفت البشرية جميع البحار.

في سنة ١٤١٨، في عهد هنريك، أثار بلوغ القوارب جزيرة ماديرا دهشة عظيمة. أما في سنة ١٥١٨، أي بعد مائة سنة، فإن السفن البرتغالية تلقي مراسيها في كنتون واليابان. ويغدو السفر إلى الهند أقل خطراً مما كان عليه السفر إلى رأس بوجادور، فقد أخذ وجه العالم يتغير سنة بعد سنة، وشهراً بعد آخر. فما يكاد علماء الجغرافيا والرسامون ينتهون من خريطة جديدة، حتى يطرأ ما يدعو إلى تصحيحها، بسبب اكتشاف جديد. وفي خمسين سنة، وضعت القواعد الأساسية لجغرافية العالم وشكل الأرض، لأن البشرية اكتشفت أخيراً الكرة التي عاشت عليها منذ الأزل! وقد كان هذا العمل الهائل من صنع جيل واحد من الناس. فإن بحارة ذلك الجيل قد تغلبوا على جميع الصعاب حتى شقوا الطريق لمن جاؤوا بعدهم، وفتح مغامروه جميع القارات والبحار. وحل أبطاله كل العقد أو جلها. ولم يبق غير عمل واحد لم يتم وهو الطواف حول العالم في سفينة واحدة، وإثبات كروية الأرض. وهذا كان هدف ماجلان.

ماجلان في الهند

مارس ١٥٠٥ - يونية ١٥١٢

إن السفن الأولى التي أقلعت من لشبونة وهبطت نهر التاج وانطلقت نحو المجهول، قد استخدمت لاكتشاف أراض جديدة. والسفن التي تلتها في الدفعة الثانية كان هدفها التجارة مع البلدان المكتشفة، أما العمارة الثالثة، فقد جهزت للقيام بأعمال حربية، ففي يوم ٢٥ مارس سنة ١٥٠٥، بدا عهد الاستعمار الذي كان يوطد دعائمه دائماً على ثلاث مراحل اتبعت خلال عدة أجيال: ففي بادئ الأمر ينشأ مركز للتجارة، ثم تشاد بجانبه قلعة بحجة حمايته. وبعد أن يتبادل المستعمرون التجارة مع حكام الأقطار الجديدة، ينقلون الجيوش من بلادهم لانتزاع تلك الأقطار من حكامها والاستئثار بمنتجاتها.

إن النجاح الذي حالف البرتغال عشرة أعوام، أنساها أن هدفها أول الأمر كان اكتساب مكان متواضع في تجارة التوابل. ولكن منذ اليوم الذي نزل فيه فاسكو دي جاما في الهند، طمعت البرتغال في الاحتفاظ لنفسها بالفوائد كلها، وجعلت تنظر إلى الهند والبرازيل وأفريقيا كأنها أملاكها الخاصة. فمن جبل طارق إلى سنغافورة إلى الصين، لا يحق لسفينة أن تمخر العباب ولا يسمح لأحد بالتجارة في ذلك الشطر من الأرض، الذي أصبح ملكاً لأصغر أمة في أوروبا.

ولقد كان منظراً غاية في الروعة، منظر تلك العمارة الحربية البرتغالية، التي أقلعت من لشبونة في اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس سنة ١٥٠٥، لفتح إمبراطورية جديدة.

لقد كانت تتألف من عشرين سفينة ضخمة لا وجه للمقارنة بينها وبين السفن السابقة في عهد هنريك. فهي معدة للغزو والفتح، مجهزة بالأشرعة المتينة المتعددة، يديرها ملاحون مهرة كثيرو العدد، ويستقلها خمسمائة جندي مدربون على القتال مسلحون أكمل تسليح تشد أزرهم مائتا آلة لقذف القنابل. وقد صحب الحملة جماعة من النجارين والعمال مزودين بالأدوات اللازمة لصنع سفن جديدة بعد بلوغ الهند.

ذلك هو الأسطول الذي أعد لغزو الشرق وقد منح الأميرال فرانشسكو الميده لقب «نائب الملك للهند»، وأشرف على إعداد العمارة أول ربابنة البرتغال، فاسكو دي جاما، الملقب بأمير بحار الهند. وكانت الخطة المرسومة تقضي بتدمير جميع مراكز التجارة على طريق الهند، وإنشاء مراكز برتغالية مكانها، والسيطرة على جميع المضايق من جبل طارق إلى سنغافورة، وإغلاق البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي أمام أية تجارة أجنبية، بحيث لا يخفق بين الشرق والغرب غير علم واحد: علم البرتغال!

وأقيمت صلاة حضرها الجنود جميعاً، وتسلم الأميرال الميده علمه من يد الملك، واخترق رجال الحملة شوارع لشبونة في طريقهم إلى السفن التي أقلعت بهم بعد أن وعدهم قائدهم بأنهم سيفتحون العالم من أقصاه إلى أقصاه.

* * *

وكان بين الجنود الذين ركعوا في الكنيسة وقت الصلاة، شاب في الرابعة والعشرين من عمره، كان لا يزال خامل الذكر، يدعى فرناو دي ماجلان. وكل ما عرف عنه أنه ولد في سنة ١٤٨٠، وتضاربت الآراء في تحديد المكان الذي ولد فيه. ويغلب على الظن أنه ولد في أوبرتو. أما أسرته فمن الطبقة الرابعة بين الأسر النبيلة. ولم يكن قد شغل مناصب تذكر، فالتحق بحملة الهند جندياً بسيطاً، من آلاف «الجنود المجهولين» الذاهبين لفتح العالم، والذين لن يعود منهم غير نفر قليل، ويستأثر واحد منهم فقط بالمجد الخالد الذي اشتركوا جميعاً في تشييده!

* * *

ليس ماجلان إذن، في تلك الرحلة، غير واحد من ألف وخمسمائة رجل يقودهم الأميرال الميده، وعبثاً نبحث عن اسمه في يوميات حروب الهند. ولا يمكننا أن نقول عن تلك الحقبة من حياته سوى أنها كانت سلسلة من التجارب. فإن ماجلان كان يقوم بجميع الأعمال التي يقوم بها جندي بسيط. ولهذا، فقد تعلم كل شيء ساعده

على تمهيد السبيل للعمل العظيم الذي اضطلع به فيما بعد وغيّر به وجه العالم. وقد اشترك ماجلان للمرة الأولى في القتال في معركة كنانور البحرية في ١٦ مارس ١٥٠٦.

إن هذه المعركة تعد من الأيام الفاصلة في الحروب البرتغالية الاستعمارية... فإن صاحب كلكوت كان قد أحسن استقبال فاسكو دي جاما عندما نزل في عاصمته في سنة ١٤٩٨ وأبدى استعداده لإنشاء علاقات تجارية مع البرتغال. ولكن، لما عاد إليه فيما بعد، على سفن أكبر حجماً وأوفر تسليحاً، أدرك الرجل أنهم يضمرون الاستيلاء على الهند، وتخوف التجار الهنود والمسلمون من أولئك الدخلاء الطامعين، الذين سيطروا على البحار. ونجم عن ذلك توقف سير القوافل ونقل السلع والمنتجات. ولم يعد ممكنا وضع حد لوثبة البرتغاليين الاستعمارية إلا بالقوة. فنشبت بينهما معركة... وكان النصر حليف البرتغاليين، ففتحت لهم هذه المعركة البحرية منافذ الهند نهائياً، وبلغت خسائرهم في الرجال ثمانين قتيلاً ومائتي جريح.

وكان ماجلان بين الجرحى، فنقل إلى إفريقيا وانقطعت أخباره لأنه لم يكن غير جندي بسيط لا يثير اهتمام أحد. ويغلب على الظن أنه عاد إلى البرتغال في سنة ١٥٠٧، وجعل يفكر من جديد في استئناف رحلاته.

* * *

أما العمارة التي أقلعت في هذه المرة إلى الهند، والتي كان ماجلان أحد رجالها، فقد عهد إليها بمهمة خاصة. فإن رفيقه لودفيكو فارتيما قد أطلع بلاط الملك على ما في مدينة ملقة من ثروة، وأفضى إليه بمعلومات دقيقة عن الجزر التي تنتج التوابل. ولهذا، فقد أدرك رجال البلاط البرتغالي أن فتح الهند والاستيلاء على كنوزها يجب أن يعقبه احتلال تلك الجزر، وليس ذلك بمستطاع إلا بغزو ملقة مفتاح تلك الجزر، ولكن البرتغاليين لم يرسلوا أسطولاً حربياً بل عمدوا إلى حيلة لا تخطئ. فقد كلفوا لوبيز دي كويرا بأن يقترب حذراً من ملقة بأربع سفن، لكي يجس النبض متظاهراً بأنه تاجر مسالم.

وبلغت العمارة سواحل الهند في إبرايل ١٥٠٩، فإن الرحلة التي قام بها فاسكو دي جاما من قبل، وخلدت اسمه في التاريخ، أصبحت الآن، بعد مضي عشرة أعوام، من الرحلات العادية التي يقوم بها أي ربان في البحرية البرتغالية. وأصبحت الطريق من لشبونة إلى ممباسة، ومن ممباسة إلى الهند، معروفة مطروقة. وفي ١٩

أغسطس ١٥٠٩ ، أقلعت عمارة سكويرا من جديد ووجهتها الشرق، وللمرة الأولى جابت السفن البرتغالية بحاراً كانت تجهل مسالكها.

وبعد رحلة استغرقت ثلاثة أسابيع، أطلت السفن على ملقة في ١١ سبتمبر ١٥٠٩ ، ووثق البرتغاليون أن فارتيما لم يكن كاذباً عندما قال لهم إن عدد السفن التي ترسو في ميناء ملقة لا يعادله عدد منها بأي مرفأ في العالم. فقد رأوا في ملقة سفناً من كل حجم وكل لون، جاءت من الملايو والصين وسيام، وكان لابد لها من المرور بمضيق ملقة نظراً لمركزه الجغرافي، الذي جعل منه أعظم سوق في الشرق. فكل سفينة تقلع من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، ومن الهند إلى الصين، ومن جزر ملوك إلى بلاد العجم، وتجتاز مضيق ملقة، وتلقي مراسيها في ميناء المدينة التي صارت مستودعاً يتبادل فيه التجار مختلف السلع.

وقف البرتغاليون في سفنهم معجبين بتلك المدينة الزاهرة، وطمعوا في تلك اللؤلؤة الشرقية ليجعلوا منها أجمل جوهرة في تاج الإمبراطورية البرتغالية. ووقف صاحب المدينة ووزراؤه من ناحيتهم يرقبون تلك السفن الغريبة القوية بعين الدهشة والقلق. لقد سمع السلطان بفتك تلك المدافع التي ينقلونها معهم، والتي تبدو فوهاتها من خلال طاقات السفن، وعلم أن أولئك القراصنة البيض يقاتلون كالشياطين. وعلى هذا فإن الوسيلة المثلى أن يقابل كذبهم بالكذب، ودهاءهم بالدهاء، وأن يتخذ الأهبة لإحباط وثبتهم.

واستقبل سلطان ملقة رسل سكويرا وبالغ في الترحيب بهم. ودعا رؤساء الحملة لتناول العشاء في قصره، ولكنهم اعتذروا. غير أن الجنود والبحارة تفرقوا في المدينة الغريبة المضيافة، وقد سرهم أن يختالوا على الأرض الثابتة التي لا تتأرجح بهم كظهور السفن، ويداعبوا النساء، ويدخلوا بيوتاً نظيفة، ويشربوا الشاي، ويأكلوا الثمار اللذيذة، ويبتاعوا من الأسواق ما شاؤوا، فإنهم لم يلاقوا ترحيباً مثل هذا الترحيب منذ غادروا لشبونة.

وهرع مواطنو المدينة من ناحيتهم، في زوارقهم الخفيفة، إلى السفن البرتغالية، وتسلقوها كالقردة، ونشأت معاملات سلمية بينهم وبين البحارة. وأسف البرتغاليون كثيراً عندما بلغهم أن السلطان قد جمع لهم المنتجات التي طلبوها وأعدها للشحن، وطلب من سكويرا إرسال قواربه إلى رصيف الميناء في الصباح التالي لنقلها إلى السفن.

وكان فرح سكويرا عظيماً، لحصوله على التوابل الثمينة بهذه السرعة. فأرسل في اليوم التالي قواربه لتسلمها، وبات ينتظر على ظهر سفينته يلعب الشطرنج مع أحد رفاقه، بينما كانت السفن الأخرى تتمايل على سطح البحر في طمأنينة وهدوء.

غير أن جرسيا دي سوزا، قائد السفينة الحربية المرافقة للقافلة فطن إلى تكاثر عدد القادمين من البر في زوارقهم الصغيرة، وتسلق عدد كبير منهم جوانب السفن وانتشارهم فيها، فخشي أن يكون في الأمر سر، وأن يكون السلطان قد نصب للبرتغاليين فخاً في البر والبحر. فاختار من رجاله رسولاً أوفده تواً إلى سكويرا ينبهه إلى الخطر.

وكان الرجل الذي اختاره: ماجلان...

أسرع الرسول إلى سفينة القيادة فألفى سكويرا يلعب الشطرنج، وسط حلقة من الوطنيين المسلحين...

وهمس ماجلان في أذنه كلمات أيقظت الرجل من غفلته. وما كاد يفكر في اتخاذ الحيطة حتى ارتفع في الجو عمود من الدخان، تصاعد من قصر السلطان في المدينة إشارة ببدء الهجوم على البرتغاليين في البر والبحر. ولكن يقظة سوزا وإقدام ماجلان أنقذا العمارة من الهلاك. فقد رد البرتغاليون الهجوم عن سفنهم وتمكنوا من الابتعاد عن الشاطئ.

ولكن الذين كانوا في المدينة وقعوا في أيدي المهاجمين، بعد أن قطعوا خط الرجعة على القوارب التي أرسلت لنقل البضائع، وفتكوا بهم جميعاً إلا واحداً فقط، هو فرانشسكو سراو صديق ماجلان. فقد أنقذه ماجلان نفسه من الهلاك. وانتزعه من أيدي الوطنيين مثخناً بالجراح، وعاد به في زورقه إلى السفن. وقد خسر البرتغاليون في هذه المعركة قواربهم التي دخلت الميناء وثلث رجالهم!

واسترعت شجاعة ماجلان أنظار القيادة العليا، فلم يمض إلا وقت قصير حتى عين ضابطاً في الأسطول الذي عهد إليه بالثأر للهزيمة التي لحقت بسكويرا في ملقة.

وهكذا سلك ماجلان من جديد طريق الشرق الأقصى. وفي شهر يوليو سنة ١٥١١، رست تجاه ملقة تسع عشرة سفينة برتغالية ونشب قتال عنيف، استمر ستة أسابيع حتى تمكن البوكرك من القضاء على جيش السلطان. وانطلق البرتغاليون ينهبون المدينة، فكانت الأسلاب فوق ما كانوا يأملون.

وفتح الاستيلاء على ملقة طريق الشرق على مصراعيه أمام البرتغال. وكان

لهذا الانتصار وقع عظيم في الصين واليابان وأوروبا. وأرسل البرتغاليون وفداً إلى الغرب برئاسة ترستاو دي كونها، يحمل معه هدايا كثيرة بينها خيول مطهمة ونمور وفهود. وكان أغرب ما جاء به الوفد فيل نقلته إحدى السفن حياً!...

وطمعت البرتغال في الاستيلاء على الجزر التي تنتج التوابل: أمبوانا وبندا وترنات وتيدور. فأقلعت ثلاث سفن بقيادة أنطونيو أبرو للكشف عن تلك الجزر واحتلالها. وقال بعض المؤرخين إن ماجلان اشترك في تلك الحملة. ولكنه في الواقع نفض يده من الشرق منذ ذلك الوقت. وماجلان، الذي كان يحلم بجزر التوابل، لم ير هذه الجزر بعينيه، ولم يطأها بقدميه، فظلت بالنسبة إليه حلماً من الأحلام...

كان ماجلان أوسع اطلاعاً على ما تحويه جزر التوابل من جميع معاصريه بفضل المعلومات التي استقاها من صديقه فرانشسكو سراو. فان رحلة هذا الربان المغامر كان لها أثر بعيد في مصير ماجلان فيما بعد. ولابد لنا من أن نشير هنا إلى عمل ذلك البحار الجريء المجهول.

افترق سراو عن صديقه ماجلان في ملقة، فعاد ماجلان إلى لشبونة، وأقلع سراو مع سفينتين ووجهته الجزر الخرافية. ووصل مع رفاقه إلى جزر ملوك التي لم يكن المسلمون قد بلغوها بعد ونشروا فيها حضارتهم. فكان سكان هذه الجزر يعيشون على الفطرة عراة الأجساد، يجهلون بطبيعة الحال التعامل بالنقود ولا يسعون وراء الربح. ولذلك حملوا إلى البرتغاليين كميات هائلة من القرنفل نظير بعض الأساور والأجراس الصغيرة. وما إن انتهى البرتغاليون من زيارة جزيرتي بندا وأمبوانا حتى كانوا قد ملأوا السفينتين بالتوابل. وأراد أمير البحر البرو أن يضع تلك الشحنة في مكان أمين، فقرر ألا يواصل السفر إلى الجزر الأخرى وأقلع في الحال عائداً إلى ملقة.

غير أن طمع البرتغاليين جعلهم يثقلون الأحمال على السفينتين. فارتطمت أحدهما بصخرة وتحطمت ـ وهي التي يقودها فرانشسكو سراو، ولم ينج الربان ورجاله بحياتهم إلا بعد جهد عظيم. وظلوا حيناً تائهين على ساحل مجهول، حتى تيسر لهم الاستيلاء على سفينة القراصنة فعادوا بها إلى أمبوانا. وهناك، استقبلهم زعيمها بالترحاب كما فعل من قبل حين جاؤوا إليه في السفينتين الكبيرتين.

وكان الواجب يقضي على سراو أن يلحق برئيسه أمير البحر في أحد المراكب الذاهبة إلى ملقة. وفاء بالقسم الذي قطعه على نفسه. ولكن الإقامة في ذلك

الفردوس راقت له، وأضعفت في نفسه الشعور بالواجب العسكري. إنه يريد أن ينعم بالحياة الهادئة كما ينعم بها أولئك العراة في الجزيرة المحظوظة. وليواصل البحارة الآخرون ذرع البحار بسفنهم، وبذل دمهم وعرقهم ثمناً للبهار والقرفة، لمصلحة الوسطاء الأجانب. وليكدحوا ليملأوا صناديق الخزانة في لشبونة. أما هو، فكفاه حروباً ومغامرات ومتاجرة!

لقد عينه ملك ترنات وزيراً للمملكة، وهذا منصب لا يثقل كاهله، فليس عليه إلا أن يظهر إلى جانب مليكه في مناسبة إعلان حرب لا أهمية لها، كمستشار له، ومقابل ذلك، يعطيه الملك بيتاً وخدماً عبيداً، ويعطيه أيضاً زوجة من نساء القبيلة ستلد له اثنين أو ثلاثة من الأبناء!

وقضى فرانشسكو سراو تسعة أعوام في تلك الجزر، لم تنقطع أثناءها صلته بصديقه ماجلان بالرغم من البحار الحائلة بينهما. فكان يكتب إليه، كلما أقلعت سفينة إلى ملقة والبرتغال، واصفاً له حياته في جزر ملوك قائلاً له: «لقد اكتشفت هنا عالماً جديداً، أغنى وأوسع من العالم الذي اكتشفه فاسكو دي جاما». وكان يحض صديقه أن يهجر البرتغال ويلحق به في عزلته. ولاشك أن سراو هو الذي أوعز إلى صديقه ماجلان بالبحث عن طريق يبلغ جزر التوابل من الغرب ـ وهو الطريق الذي سلكه كولومبو ـ بدلاً من الطريق الشرقي الطويل.

ويغلب على الظن أن ماجلان وصديقه رسما خطة مشتركة. فقد وجد بين مخلفات سراو بعد موته خطاب من ماجلان يعده فيه باللحاق به إلى جزيرة ترنات، إن لم يكن بالطريق التي ألفها البرتغاليون، فبطريق أخرى.

* * *

فكرة الطريق الجديدة، وآثار جراح بقيت على جسده، وعبد اشتراه في ملقة... هذه هي ثروة ماجلان التي حملها وهو عائد إلى وطنه سنة ١٥١٢، بعد سبعة أعوام قضاها في الهند. ولشد ما دهش حين بلغ الوطن، فرأى وجه لشبونة والبرتغال قد كسته يد الأيام طلاء براقاً غير ملامحه القديمة.

ففي مكان الكنيسة الصغيرة في بليم، تقوم الآن كاتدرائية فخمة تنطق بالثراء الذي حملته التوابل معها من الشرق.

وعلى ضفتي النهر، تصخب أصوات المطارق في مصانع ضخمة تعمل دائبة في تشييد أساطيل جديدة. وفي الميناء تتزاحم السفن خافقة عليها راياتها المختلفة.

ومستودعات المرفأ تعج بالبضائع. وفي الشوارع يسير الجمهور في ضوضاء، بين القصور الفاخرة الحديثة، وفي المصارف والحوانيت ومكاتب الوسطاء تسمع جميع اللغات. فإن لشبونة، المدينة الصغيرة، قد أصبحت بفضل احتلال البرتغاليين للهند، مركزاً عالمياً وعاصمة فخمة. وأصبحت سيدات المدينة يخرجن في مركباتهن وقد تحلين بلآلئ الهند!...

لقد تغير كل شيء وغدا أوفر عظمة وكمالاً مما كان. وماجلان وحده لم يتغير... فإنه ما زال الجندي المجهول الذي لا يرقب عودته أحد، ولا يشكره أحد، ولا يحييه أحد!

ماجلان يتحرر

يونية ١٥١٢ - اكتوبر ١٥١٧

إن العصور التي تتصف بالأعمال المجيدة كثيراً ما تنقصها المشاعر الإنسانية الرفيعة، فإن أولئك الغزاة الذين وهبوا لإسبانيا والبرتغال دنيا جديدة لم يلاقوا من ملوكهم كفاء ما جاهدوا وصنعوا، فكولومبو عاد إلى إشبيلية مصفداً بالأغلال. وكورتز عاش مغضوباً عليه. وبيزارو مات مقتولاً. ونونيز دي بلباو الذي اكتشف المحيط الهادئ، قطع رأسه. وكامورانس، الشاعر الجندي البرتغالي، لبث أعواماً في سجن قذر، مثل سرفانتس. فما أفظع نكران الجميل في عصر الاكتشافات!

لقد أصبح المستغلون حكاماً لمقاطعات جديدة، وطفقوا يختزنون الذهب أكداساً، ويحرمون من الغنيمة أولئك الضباط والجنود الطيبين الذين ارتكبوا خطأ العودة إلى وطنهم بعدما أنهكوا أنفسهم بالحرمان والتضحية، وقضوا في المستعمرات الجديدة سنوات عجافاً طوالاً.

إن خوض معركتي كنانور وملقة، وغيرهما من المعارك التي لا حصر لها، والمخاطرة بالحياة والصحة مائة مرة في سبيل البرتغال، كل هذا لم يشفع لماجلان في أيسر ترقية بعد أوبته. وما منح الرجل معاشاً شهرياً بسيطاً إلا لكونه من أسرة نبيلة، فلما احتج على ذلك استبدل بالمعاش وظيفة صغيرة بالبلاط الملكي لم يقم فيها بأي عمل حتى أنف من ذلك وأبى أن يتناول مرتباً دون أن يصنع شيئاً. وجعل يتحين الفرصة للانطلاق في مغامرة جديدة.

واضطر إلى الانتظار سنة كاملة، حتى نظم الملك مانويلو في سنة ١٥١٣ حملة

لمحاربة القراصنة في المغرب فالتحق بها ماجلان. ولكنه لم يكن فيها غير ضابط مساعد بالرغم من خبرته الواسعة في الملاحة والحرب البحرية. ولم يظهر اسمه قط في التقارير الرسمية - كما كانت الحال في الهند - بالرغم من أنه كان دائماً يتقدم الصفوف، وجرح الرجل للمرة الثالثة في قتال بالسلاح الأبيض، فأصيب بطعنة رمح في ركبته اليسرى ظلت قدمه بسببها نصف مشلولة طول حياته...

ورفض ماجلان العودة إلى بلاده والمطالبة بمعاش يكفيه، وأصر على البقاء في الجيش ومواجهة الأخطار... فعهد إليه، مع ضابط آخر، بحراسة قطعان الماشية التي نهبها البرتغاليون من المغاربة. وهنا وقعت حادثة كان لها بالنسبة إليه شأنها، فقد هربت بعض الخراف ليلاً من حظائرها. فراحت ألسنة السوء تتهم ماجلان ورفيقه بأنهما باعاها سراً، فقرر العودة إلى بلاده، وأبحر إليها قبل أن يجرؤ أحد على اتهامه علناً.

* * *

وما كاد ماجلان يصل إلى لشبونة حتى طلب مقابلة الملك، لا ليدافع عن نفسه أو يبرر سلوكه، بل ليطالب بعمل يليق به وبمرتب أعلى من مرتبه. ولكن الملك أحيط علماً بأن ذلك الضابط الجامح قد غادر المغرب بإرادته، دون أن يطلب إذناً بذلك. فقطع عليه الكلام، وأمره أن يعود إلى وظيفته في إفريقيا ويضع نفسه تحت تصرف القيادة.

وامتثل ماجلان للأمر احتراماً للنظام، وأبحر إلى إفريقيا بأول سفينة دون أن يجرؤ أحد على توجيه أية تهمة إليه، بل إن القيادة منحته إذناً بترك الجيش عزيزاً مكرماً، وزودته بجميع الوثائق التي تثبت براءته وتشيد بخدماته، فرجع ماجلان إلى لشبونة والأسى يحز في نفسه، فقد رأى نفسه غرضاً للأقاويل بدلاً من أن ينال الترقية التي يستأهلها وكانت المكافأة الوحيدة التي بقيت له آثار الجراح التي أصيب بها.

وقد سكت طويلاً وظل قابعاً في الظلام. ولكنه الآن قد بلغ الخامسة والثلاثين، وهو لا يسأل إحساناً، وإنما يطلب حقاً صراحاً.

كانت الحكمة توحي إلى ماجلان ألا يذهب من فوره إلى الملك بعد أوبته، وألا يضايقه بتكرار الطلبات التي تقدم بها من قبل. وكان ينبغي أن يصمت حتى يكسب لنفسه أنصاراً وأعواناً في البلاط.

ولكن ذلك الرجل القصير الهادئ كان يجهل فن التحبب إلى الكبار والصغار على السواء. وهو إلى ذلك كان قاصراً عن التعبير عن آرائه بطلاقة. وهكذا كان هذا الناسك المنكمش في عزلته، الصامت الذي لا يتكلم، يخلق حوله جواً ملبداً بالريب والظنون.

وذهب ماجلان، في هذه المرة أيضاً، إلى الملك وحيداً، دون أن يؤيده أحد أو يسنده صديق... لقد اختار الطريق الصريحة المباشرة، وهي أسوأ الطرق للذهاب إلى البلاط، وقد استقبله الملك مانويلو في الغرفة ذاتها، التي استقبل فيها سلفه جوان الثاني المغامر كولومبو وطرده من حضرته، فتكرر المشهد التاريخي في المكان ذاته.

لقد رفع ماجلان إلى الملك الوثائق التي تنفي نفياً قاطعاً تلك التهمة الباطلة التي وجهت إليه. ثم التمس بسبب جراحه التي جعلته عاجزاً عن مواصلة الخدمة، أن يرفع مرتبه ولو قدراً بسيطاً.

ونظر مانويلو إلى الزائر مقطب الجبين، فقد ضايقه أسلوبه في الطلب، ثم نهره وأمره بالخروج فوراً من حضرته.

فلم يجد ماجلان بداً من أن يسأل جلالته إذا كان لديه اعتراض في أن يلتحق بخدمة دولة أجنبية، قد يجد عندها الترقية التي يرغب فيها؟ فوافق الملك مبدياً عدم اكتراثه بالأمر. وهكذا فهم ماجلان أن بلاط البرتغال يرحب بالاستغناء عن خدمته كل الترحيب!

وأحس ماجلان أنه بالغ في التضحية بنفسه من أجل مصلحة غيره، وأنه قد آن أن يحلق بجناحيه في جو الحرية ويعيش من أجل نفسه... لقد أنكره وطنه، فسقط عنه كل واجب لوطنه عليه وكل فرض نحوه.

* * *

بقي ماجلان، بعد رفض الملك، سنة كاملة في البرتغال، دون أن يعلم أحد ماذا يصنع. وكل ما عرف عنه، أنه كان كثير الاتصال بالربابنة والبحارة القادمين من البحار الجنوبية... كما كان كثير التردد على المكتبات لمطالعة الخرائط والتقارير والكتب الخاصة بالرحلات الأخيرة إلى البرازيل.

وتوثقت عرى الصداقة، في هذه الفترة، بين ماجلان وشاب يدعى روي فاليرو، وهي صداقة غريبة، للتفاوت العظيم بين أخلاق الرجلين... فإن فاليرو سريع التأثر، عصبي المزاج، متكبر، مشاكس، على عكس ماجلان الصامت الهادئ الغامض،

ولكن مزايا الصديقين المتعارضة أدت إلى نتائج عجيبة. فكل منهما يتمم الآخر... فقد قضى فاليرو حياته في دراسة الخرائط والرسوم ومطالعة الكتب، حتى اعتبره مواطنوه أبرع من رسم خريطة في البرتغال. وهو يجهل كل شيء عن مهنة البحار وعمله، ولكنه يعرف كل شيء من الناحية النظرية. ولهذا فإن صداقته لماجلان ستعود بفوائد عظيمة على الرحالة المغامر.

وجمع بين الصديقين وجه شبه من حيث المعاملة التي لقياها. فكل منهما قد جرح في كرامته ومنعه الملك من أداء رسالته...

كان فاليرو طامعاً في وظيفة فلكي في البلاط. وكان جديراً بها، ولكنه أزعج الملك بطبعه الصاخب كما أزعجه ماجلان بطبعه الجاف. وكان خصوم فاليرو يصمونه بالجنون. بل إن بعضهم ادعى أنه ذو صلة بالجن، ليثير عليه نقمة محاكم التفتيش. وقد قربت هذه المعاملة التي لقيها الرجلان بينهما. فدرس فاليرو مشروعات صديقه وأبدى له رأيه فيها. واتفق الاثنان على التعاون معاً، وعلى تكتم مشروعهما حتى يأزف موعد تنفيذه فينفذانه دون أن يستجديا وطنهما عوناً، بل ينفذانه ولو جلب على وطنهما الخسائر والأضرار!

* * *

ما هو ذلك المشروع الذي يتناقش فيه ماجلان وفاليرو؟ وأي خطر له حتى يتكتمه الاثنان، وما قيمته التي تدفعهما إلى طيه سراً مكتوماً في صدريهما؟

إن الرد على هذا السؤال يبدو أول وهلة تافهاً. فما كان المشروع إلا استئناف الفكرة الأولى التي أفضى بها سراو إلى صديقه ماجلان، فكرة البحث عن طريق يصل بين البرتغال وجزر التوابل، من الغرب لا من الشرق. فلا يطوفان حول أفريقيا بل يدوران حول أمريكا. وقد كانت الخرائط المتداولة ترسم أمريكا الجنوبية متصلة بالقطب الجنوبي. ولم يكن أحد يفكر في إمكان اجتياز المحيط الإطلنطي، والانتقال منه إلى المحيط الهادئ، في سفينة واحدة. ، أما ماجلان، فإنه يعتقد أن هذا ممكن، وذلك هو السر الذي يكتمه وصديقه فاليرو.

ولكن، كيف عرف ماجلان أن هناك ممراً بين المحيطين في الطرف الجنوبي لأمريكا؟ هل عرف ذلك من رجل سبقه إلى ذلك الممر فيكون قد انتحل لنفسه عمل غيره. ولا يكون ثمة ما يبرر إطلاق اسمه على «مضيق ماجلان»، كما أطلق اسم أمريكو فسبوسي على أمريكا التي اكتشفها كولومبو؟!

إننا مدينون بالمعلومات الخاصة بهذا الاكتشاف إلى أنطونيو بيجافيتا، رفيق ماجلان في رحلته ومدون قصة حياته. فقد كتب بيجافيتا يقول إنهم عندما بلغوا المضيق الذي أطلق عليه اسم ماجلان، لم يكن أحد منهم يصدق أن هناك ممراً، عدا ماجلان وحده، وقد استنتج ماجلان ذلك من خريطة وضعها من قبل مرتان بيهايم، وعثر عليها ماجلان في مكتبة الملك بلشبونة. وكان مرتان بيهايم هذا رسام الخرائط في قصر الملك، وكان ماجلان كثير التردد على المكتبة الملكية. ولابد أنه اطلع فيها على خريطة وضعها مرتان بيهايم وأشار فيها إلى وجود ذلك الممر بين المحيطين. ولكن بيهايم لم يقم بأية رحلة في حياته. فمن أين له العلم بجود الممر؟ أهناك رجال سبقوا ماجلان إلى تلك البحار واكتشفوا الممر وأطلعوا بيهايم على اكتشافهم وبقيت أسماؤهم مجهولة؟

لقد تعددت الآراء في هذا الموضوع، ولكن الراجح أنه قبل ماجلان، لم يصل أحد إلى الممر الذي اكتشفه وأطلق عليه اسمه، وإن كان غيره قد فطنوا قبلاً إلى وجود الممر وحاولوا الوصول إليه. وقد وصل بعضهم إلى طريق بحري توغلوا فيه قليلاً، وظنوه خليجاً كبيراً ثم نكصوا على أعقابهم أمام عنف التيارات والزوابع. ولم يكن ذلك الطريق غير مصب نهر لابلاتا الهائل... أما الممر الذي يعرف الآن بمضيق ماجلان فإنه يقع في جنوب ذلك النهر عند طرف الجمهورية الفضية. وقد كان ماجلان نفسه يعتقد أن تلك الطريق التي بلغها غيره من قبل، ورسمها بيهايم في خريطته، هي المنفذ الذي يبحث عنه بين المحيطين. فماجلان بنى مشروعه إذن على فكرة خاطئة. ولكنه لو لم يؤكد أنه عارف بسر الممر المنشود، لما سلموه قيادة عمارة بحرية لينطلق بها في البحار. وكما أسفرت نظرية كولومبو الخاطئة عن اكتشاف العالم الجديد، فقد تمخضت نظرية ماجلان الخاطئة كذلك عن اكتشاف المنفذ بين المحيط الإطلنطي والمحيط الهادئ.

فكرة تتحقق

اكتوبر ١٥١٧ - مارس ١٥١٨

إن ماجلان يوشك أن يتخذ الآن قراراً خطيراً. فقد وضع خطة جريئة لم يضع بحار من قبل خطة تماثلها. وهو يعتقد أنها ناجحة لاشك في ذلك. ولكن، كيف السبيل إلى تنفيذ مشروع جريء إلى هذا الحد؟ إن أحداً من أصدقائه أصحاب السفن البرتغاليين، لن يجرؤ على تسليم القيادة لرجل مغضوب عليه في البلاط. إذن، لم يبق أمامه غير وسيلة واحدة، هي أن يعرض مشروعه على إسبانيا. فهناك فقط يجد المساعدة المنشودة، ويصبح موضع اهتمام، لأنه سيقدم لإسبانيا صكاً بملكية جزر التوابل، التي أكد له شريكه فاليرو أنها واقعة في نطاق القسم الذي جعله البابا من نصيب إسبانيا، في مشروع التقسيم الذي أجراه...

وجزر التوابل أغنى جزر في العالم. وماجلان يعرف أقرب الطرق المؤدية إليها. ولهذا، فإن البلاط الإسباني سيرحب به، ويمكنه من تحقيق أمنية العمر، وإن كان ذلك مقابل تضحية أليمة، لأن ماجلان يعلم أن التجاءه إلى إسبانيا سيثير عليه نقمة مواطنيه البرتغاليين، ويصمه بوصمة الخيانة.

* * *

لقد انقضت الآن فترة التأهب... وفي سنة ١٥١٧ بدأ ماجلان ينفذ خطته، فغادر شريكه فاليرو مؤقتاً في البرتغال، واجتاز الحدود الإسبانية. وفي ٢٠ أكتوبر، وصل إلى أشبيلية مع خادمه هنريك، الذي يتبعه كخياله منذ بضعة أعوام. ولم تكن أشبيلية في ذلك الوقت مقراً للملك الجديد، كارلوس الأول، الذي عرف فيما بعد

باسم شارلكان، فقد كان الملك وقتئذ في الثامنة عشرة من عمره. وقد غادر بلاد فلاندر إلى سانتاندر، ثم غادرها في طريقه إلى فلادوليد - أي بلد الوليد، حيث اعتزم الإقامة مع حاشيته منذ شهر نوفمبر.

وماجلان لا يجهل أن هذا الميناء إنما هو عتبة الهند، وإن معظم السفن الذاهبة إلى الغرب تقلع عنه.

وقد تراكمت البضائع في الميناء حتى اضطر الملك إلى إنشاء مؤسسة فيه باسم «بيت الهند»، وهي في آن واحد مصرف وسوق تجارية وشركة نقل بحرية وغرفة تجارية ومكتب للاستعلامات حيث يلتقي رجال الأعمال وربابنة السفن ويعقدون اتفاقاتهم تحت إشراف الحكومة. وكان لابد لكل من انتوى رحلة جديدة، أن يذهب أولاً إلى بيت الهند ليحصل على الإذن والمساعدة.

ولكن ماجلان لم يسر على هذه القاعدة. فهو يدرك أن رجال تلك المؤسسة يجهلونه، وأنه لا يجمل به أن يلج بابها قبل أن يطرق له الباب صديق مخلص، فذهب إلى بيت ديجو بربوسا، وهو برتغالي مثله تنازل عن جنسيته وشغل منذ أربعة عشر عاماً منصب مدير مستودع الأسلحة. وهو يتمتع بسمعة طيبة. وفي وسعه أن يكون خير ضامن لماجلان. وبربوسا ممن سبق لهم الطواف في بحار الهند، وقد ورث عنه ابنه دوارثي بربوسا حب المقامرة، وطاف مثله في بحار الهند وفارس والملايو ووضع كتاباً عن رحلاته.

توثقت عرى الصداقة بين الثلاثة... وعرض بربوسا على ماجلان أن يقيم في بيته. وما مرت سنة على إقامته في بيت صديقه حتى تزوج ابنته بربارة، وأصبح ماجلان صهر بربوسا وصار له في أشبيلية بيت وزوجة، ولم يعد في نظر السلطات الإسبانية لاجئاً غريباً. وفي وسعه الآن أن يعتمد على صداقته لبربوسا وعلى ثروة زوجته، ليجتاز بلا خوف عتبة بيت الهند!

ونحن لنجهل تفاصيل ما حدث بينه وبين القائمين بأمر هذه المؤسسة. والذي نعلمه أن اقتراحه لم يرق لهم وأن الأخصائيين الفنيين لم يوافقوا على مشروعه، فاضطر ماجلان أن ينفذه - كما تنفذ الأعمال الخارقة في التاريخ - لا بمساعدة السلطات المختصة، بل بدونها وبالرغم منها!

* * *

لم يقدم بيت الهند أية مساعدة لماجلان. وهكذا أغلق في وجهه أول الأبواب المؤدية إلى قاعة الاستقبال في قصر الملك. ولا شك في أن ذلك اليوم كان يوماً قاتماً

في نظر ماجلان، لأنه لم يتمكن من إقناع الأخصائيين الثلاثة المشرفين على اللجنة صاحبة الشأن بأن يولوا مشروعه اهتمامهم.

ولكن ماجلان فوجئ برسول يقول له إن أحد أعضاء اللجنة الثلاثة قد أصغى باهتمام إلى بياناته، وأنه يرغب في المزيد. كان ذلك العضو: جوان أراندا. ولم يكن الدافع إلى اهتمامه بمشروع ماجلان غير الطمع في الربح! وإن كان قد رفض المشروع بوصفه عضواً في اللجنة، فإن هذا لا يمنعه من الاهتمام به بصفته الشخصية، وتمويله والإفادة منه كوسيط. والواقع أن هذا التصرف لم يكن سليماً، وسيقاضيه بيت الهند في المستقبل لهذا السبب.

ولكن ماذا يهم ماجلان من تصرف الرجل مادام الشيء الوحيد الذي يشغل باله هو نجاح مشروعه، وهو من أجل ذلك يسلك كل السبل.

إن أراندا يوافق على اقتراحاته كلها، بعد أن يستعلم عن الرجل في البرتغال، ويتلقى الرد بأن ماجلان ربان مجرب، وأن فاليرو يعد من الجغرافيين الأفذاذ.

وتسلم المدير التجاري لبيت الهند، جوان دي اراندا، مشروع ماجلان وتبناه، وانضم إلى الربان وصديقه فاليرو فأصبح ثالث الشركاء. ثم بدأ العمل بلا تردد... فكتب خطاباً إلى وزير البلاط بسط فيه أهمية المشروع وأوصاه خيراً بماجلان، قائلاً إنه خليق أن يقدم للملك خدمات جليلة. وكتب إلى المستشارين طالباً منهم أن يمهدوا للربان مقابلة الملك. ولم يعرض على ماجلان مصاحبته إلى «بلد الوليد» فحسب، بل أبدى استعداده لدفع النفقات أيضاً.

وهكذا تحولت الرياح في ليلة واحدة... ورأى ماجلان آماله تتحقق إلى أبعد ما كان ينتظر. وحصل في إسبانيا، بعد بضعة شهور، على ما لم يحصل عليه خلال عشر سنين في وطنه «البرتغال».

وبعد أن أصبحت أبواب القصر الملكي مفتوحة أمامه، كتب إلى فاليرو أن يتذرع بالأمل ويحضر إلى أشبيلية بلا إبطاء لأن كل شيء على خير ما يرام.

وقد ثار فاليرو حين علم أن اراندا لم يقدم على ذكر الاتفاق إلا طمعاً في الربح. واتهم صديقه بأنه خانه وباع سره للغير. ورفض أن يذهب إلى بلد الوليد. فأوشك المشروع يتعطل. ولكن تبادل وجهات النظر أسفر عن تفاهم نهائي فاستقر الرأي على أن يحصل أراندا على جزء من ثمانية من الأرباح. واعتزم أراندا أن يعرض المشروع على مجلس التاج.

واتضح لأعضاء المجلس أن ماجلان ليس من أولئك المغامرين الخياليين الذين يسعون وراء الأوهام، وانه يعرف ما يقول ويثق به. فقد بسط وجهة نظره بدقة ووضوح، وأبرز ما لديه من وثائق ليثبت للمجلس أن الطريق إلى جزر التوابل من الغرب أقصر من الطريق إليها من الشرق. وأن هناك ممراً مائياً يصل بين المحيطين، فإذا سارت السفن الإسبانية في الطريق الجديدة فإنها ستسبق السفن البرتغالية، وتستولي إسبانيا على مصدر تلك الكنوز البعيدة، ويصبح ملك إسبانيا أغنى ملوك الأرض قاطبة.

وقال ماجلان إنه لا داعي إلى تخوف إسبانيا من أن تكون جزر ملوك المنتجة للتوابل واقعة في القسم المخصص للبرتغال في مشروع تقسيم العالم. فإن ماجلان يعلم يقيناً أن هذه الجزر واقعة في المنطقة الإسبانية.

وتقدم فاليرو بعد ماجلان، فشرح الخطة المرسومة وبسط الفكرة الجديدة مستعيناً بالخرائط التي وضعها. وانطلق يثبت من ناحيته أن الجزر يجب أن تكون من نصيب إسبانيا.

وحدثت المعجزة... وأقر المجلس فكرة الصديقين، وطلب منهما أن يضعا تقريراً عنها.

وربح ماجلان القضية... وأحس بأن الحظ قد بدأ يحالفه، إذ وجد زوجة تحبه، وأصدقاء يساعدونه، وأنصاراً يؤيدون مشروعاته، وملكاً يوليه ثقته... كل أولئك في إسبانيا، لا في وطنه البرتغال.

وذات يوم هبط أشبيلية الثري الفلامندي كريستوفر دي هارو، صاحب الأعمال الواسعة، الذي أمد بالأموال قبل اليوم أكثر من رحلة بحرية. وقد كان هذا الرجل يقطن لشبونة، ولكنه غادرها لأن الملك مانويلو أغضبه كما أغضب غيره. ولهذا، فإن كل ما يسيء إلى الملك البرتغالي يسر دي هارو. وهو يعرف ماجلان ويثق به. فإذا امتنعت السلطات الإسبانية عن تمويل رحلته، سارع هو إلى إمدادها بالأموال مشتركاً مع بعض زملائه من أصحاب الأعمال.

وكان اقتراح دي هارو خليقاً أن يغير الأوضاع، فإن ماجلان لم يعد، بالنسبة إلى بيت الهند، الرجل الذي يلتمس المساعدة، بل لقد غدا صاحب فكرة ورأس مال في آن معاً. وكل ما يريده الآن من بيت الهند ومن الملك، أن يسمح له برفع العلم الإسباني على سفنه، وهو يتعهد، مقابل هذا الشرف، بأن يدفع للتاج الإسباني مقدار الخمس من أرباح الرحلة كلها.

لكن مجلس التاج رفض هذا العرض، لأن رجلاً مثل كريستوفر دي هارو لا يخاطر بأمواله في سبيل رحلة إلا إذا وثق من نتائجها الرابحة، فلماذا لا تنفق خزانة الدولة الإسبانية على هذه الرحلة بدلاً من كريستوفر دي هارو لكي تتضاعف الأرباح التي يجنيها التاج منها ؟!

وعلى هذا، وافق المجلس على جميع الشروط التي اشترطها ماجلان وصديقه فاليرو.

وفي ٢٢ مارس سنة ١٥١٨، وقع الملك شارلكان على العقد المبرم بين التاج من ناحية، وماجلان وروي فاليرو من ناحية أخرى.

* * *

وفيما يلي بعض فقرات من تلك الوثيقة التي وقعها الملك، مانحاً ماجلان وفاليرو حق احتكار الملاحة دون سواهما في البحار المجهولة في الغرب :

«انه لا يحق لأحد أن يلحق بكما ضرراً، وأنتما في تلك البحار، تحملان عبء هذه الرحلة... هذه إرادتي. وإنني أعد بألا يسمح لأحد في السنين العشر القادمة بارتياد الطريق ذاتها لاكتشاف الأماكن التي تبحثان عنها. وإذا أراد أحد الإقدام على هذا العمل وطلب منا الإذن بذلك، فإننا سنطلعكما على رغبته قبل منحه الإذن المطلوب، لكي تتمكنا إن شئتما من القيام بالرحلة ذاتها».

وتعطي البنود التالية ماجلان وفاليرو حق الاستيلاء على جزء من عشرين من دخل البلدان التي يكتشفانها وجزيرتين إذا زاد عدد الجزر المكتشفة على ست جزر. وتسبغ على كل من ماجلان وفاليرو لقب «حاكم» في جميع الأراضي التي يكتشفانها.

وتعهد الملك بأن يجهز خمس سفن برجالها ومؤونتها وأسلحتها عامين كاملين. وتختم الوثيقة بهذه العبارات:

«إنني أتعهد بشرفي بأن أنفذ ما تقدم، وقد أصدرت أمرين بكتابة هذا العقد الذي أوقع عليه باسمي».

وليس هذا كل شيء... فقد جاء في الوثيقة أنه يجب اطلاع جميع موظفي الدولة كباراً وصغاراً، على فحوى هذا العقد، لكي يقدموا لماجلان وفاليرو كل مساعدة يحتاجان إليها. وهكذا أصبحت الدولة الإسبانية بأسرها رهن إشارة المغامرين البرتغاليين المجهولين بالأمس!

ولم يكن ماجلان يأمل كل هذا، ومع ذلك فقد حدث فيما بعد ما هو أدعى إلى الدهشة... فإن شارلكان، الذي عرف من قبل بتردده، قد أصبح الآن من أشد أنصار الرحلة المزمعة.

إرادة تقتحم الصعاب

مارس ١٥١٨ - أغسطس ١٥١٩

وجد الجندي البسيط، بالأمس، نفسه يواجه مهمة خطيرة. فعليه الآن أن يعد للسفر خمس سفن يجتاز بها مناطق غير مطروقة. وليس في وسع أحد أن يسدي إليه النصائح، لأن الجميع يجهلون تلك المناطق التي ينوي ارتيادها للمرة الأولى. ولا يستطيع أحد أن يحدد له الزمن الذي سوف تستغرقه رحلته، أو يذكر له شيئاً عن المناخ والسكان في البلدان التي سوف يبلغها، فيجب إذن أن تعد السفن لمواجهة جميع الطوارئ والاحتمالات: الطقس البارد والطقس الحار، البحر العاصف والبحر الهادئ، السفر فوق الأمواج سنة أو سنتين أو ثلاثاً، الحرب والتجارة السلمية... إن ماجلان يجب أن يدخل في حسابه كل شيء... ويواجه جميع الصعاب المفاجئة ويتغلب عليها.

وهنا فقط، أمام عظمة ذلك العمل، تجلت مزايا الحزم التي يتحلى بها هذا الرجل، والتي كثيراً ما غمرتها الحوادث من قبل، فإنه لم يترك لمعاونيه القيام بجميع الأعمال التمهيدية قبل الرحيل، كما فعل كولومبو، وإنما سلك النهج الذي سلكه نابليون في حروبه بعد ذلك بقرون، فتولى بنفسه الإشراف على جميع التفاصيل، وجعل نصب عينيه كل كبيرة وصغيرة لثلاثة أعوام مقبلة. ويا لها من مهمة شاقة، على الرجل الذي آلى أن يتغلب منفرداً على جميع الصعاب التي تقف في سبيل مشروعه الضخم!

نعم، إن شارلكان قد تعهد بتقديم كل ما يلزم للرحلة، وأمر موظفي الدولة بأن يساعدوا في إعدادها. ولكن ما أوسع الشقة بين أمر يصدره إمبراطور، وبين تنفيذ

الأمر. ولهذا، فإن ماجلان لم يترك لأحد مهمة إعداد مشروعه. فهو يراقب بنفسه جميع التدابير ويناقش بيت الهند والموظفين والتجار والموردين والعمال، ويشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه نحو الرجال الذي وضعوا مصيرهم بين يديه. وأنه يفحص البضائع وقوائم الحساب والحبال والأسلحة، ويعرف السفن الخمس معرفة دقيقة، وهو في الوقت نفسه يقاوم الدسائس التي يحوكها له خصومه خفية لعرقلة رحلته الرائعة. وقد ارتفع نبوغه إلى الأوج، فتغلب على كل شيء.

* * *

وقد جاء أول هجوم عليه من البرتغال. فقد علم الملك مانويلو بالاتفاق الذي تم في إسبانيا فوقع منه موقعاً أليماً، لأن احتكار تجارة التوابل يدر عليه مئتي ألف دوكة في السنة، وهو دخل هائل. ومع ذلك فإن سفنه لم تمتلك بعد جزر التوابل بل اتصلت بها فقط. وقد أصبح مجرد التفكير في أن الإسبانيين قد يبلغون تلك الجزر من الغرب كابوساً مزعجاً للملك البرتغالي، وخطراً داهماً يهدد خزانة بلاده. وسوف يحاول مانويلو بجميع الطرق منع تلك الرحلة الجريئة، ولهذا عهد إلى سفيره في إسبانيا، ألفارو دي كوستا، في بذل كل طاقته للحيلولة دونها.

وواجه ألفارو دي كوستا الصعوبة بلا تردد، وهاجمها من ناحيتين. فقد ذهب أولاً إلى ماجلان وحاول أن يثنيه عن عزمه بالوعد والوعيد. ألا يشعر الرجل المغامر بالخطيئة التي يقترفها نحو الله ونحو ملكه، إذ يضع نفسه تحت تصرف ملك أجنبي؟ وهل يجهل أن مانويلو عازم على الإقتران بالأميرة ليونورا، أخت كارلوس الأول (شارلكان) وأن رحلة ماجلان قد تحول دون هذا الزواج.

وفي الوقت نفسه، وعده السفير بمكافآت سخية لو عاد إلى رشده، وفسخ العقد مع «بيت الهند»، ورجع إلى لشبونة بوصفه من رعايا جلالة ملك البرتغال.

غير أن ماجلان يعلم مبلغ ما يكنه له مليكه من البغض، ولا يشك في أن جزاءه بعد عودته إلى لشبونة سيكون طعنة خنجر تقضي عليه. ولهذا، عبر للسفير عن أسفه لما حدث، وقال إن العدول عن مشروعه قد فات أوانه لأنه قطع عهداً لملك إسبانيا، ولابد من الوفاء بالعهد.

إن ماجلان إذن لا يمكن ثنيه عن عزمه، فلم يبق أمام دي كوستا غير مواجهة ملك إسبانيا. فطلب موعداً للمثول أمامه، فلما تمت المقابلة كتب إلى مانويلو يصف ما دار فيها قائلاً: «إن الله وحده يعلم ما عانيته في مسألة ماجلان، فقد تحدثت

إلى الملك بصراحة في هذه المسألة. ولفت نظره إلى أنه لا يليق بملك أن يستخدم أحداً من رعايا ملك آخر ضد إرادته. وقلت له إن الوقت غير مناسب لإغضاب جلالتكم، وأن بين رعاياه كثيرين ممن يمكن استخدامهم في رحلات جديدة دون الالتجاء إلى الذين أثاروا نقمة جلالتكم، وطلبت منه أن يوافق على أحد أمرين: إما أن يعيد هذين الرجلين إلى بلادهما، أو يؤجل تنفيذ مشروعهما سنة أخرى».

وادعى السفير ألفارو أن ماجلان وفاليرو راغبان في العودة ولكن البلاط الإسباني يحول دون ذلك. وهذا اختلاق لا أصل له.

لم يقع شارلكان في الفخ، لعلمه أن تأجيل تنفيذ المشروع سنة كاملة يفسح للبرتغال الوقت لإرسال عمارة بحرية تحتل جزر التوابل وتمتلكها قبل أن تصل إليها إسبانيا. فرفض شارلكان الإصغاء إلى احتجاج السفير، وأحاله على مستشاريه، وأدى التسويف إلى حفظ الاحتجاج، بعد أن أكد الملك الإسباني أنه لا يرمي بأي حال إلى الحاق ضرر بصديقه الملك مانويلو. وقد كان لهذا الاحتجاج البرتغالي نتيجة معكوسة فقد عاد بالفائدة على ماجلان نفسه. ومنذ اللحظة التي اهتم فيها كارلوس بمشروع ماجلان، أصبح لهذا الضابط الصغير المجهول رجلاً ذا شأن في نظر مانويلو. وبقدر ما كانت إسبانيا تعجل سفر العمارة إلى هدفها المجهول، كان البرتغال يبذل الجهود لإعاقتها!

* * *

وتولى سباستيان ألفاريز، قنصل البرتغال في أشبيلية الحاق الضرر سراً بالسفن المتأهبة للرحيل. فقد اتصل بالضباط الإسبانيين الملحقين بالحملة وحرضهم على الامتناع عن السفر تحت إمرة مغامر برتغالي. ونجح الرجل في إثارة الحسد في نفوس أولئك الضباط، فجعلوا يتساءلون ويتشاورون فيما يجب أن يصنعوه. ولم يكتف ألفاريز بهذا بل سعى لإثارة فتنة بين البحارة، تفقد ماجلان قيادة الحملة إن لم تفقده حياته. وكان ذلك الجاسوس أستاذاً في إثارة الفتن! فقد ذهب يوماً متنكراً إلى المرفأ حيث كانت السفن الخمس راسية، وأشار إلى الراية الخافقة على سفينة القيادة، وخاطب المارة قائلاً: «أليس من العار أن تخفق هذه الراية البرتغالية على سفينة إسبانية؟» وهاج الجمهور لهذه الكلمات المثيرة، وما هي إلا دقائق حتى وثب الناس على ظهر السفينة، لتمزيق العلم الغريب.

وكان ماجلان يشرف كعادته على سير الأعمال، فأسرع إلى السفينة وأفهم

الجمهور الثائر أن الراية التي يرونها ليست راية البرتغال بل رايته الخاصة، وأنه يرفعها على سفينة القيادة بحكم القوانين المرعية.

وإذا كان سهلاً تأليب الجماهير، فإنه من الصعب إعادتها إلى رشدها. وهذا ما حدث لماجلان، فقد ظل الناس يلحون في إنزال الراية الغريبة. وانضم إليهم رجال الشرطة. فلم تمض دقائق حتى كان البحارة قد اشتبكوا مع الجمهور في عراك عنيف، فسلت السيوف من أغمادها. وصاح ماجلان مهدداً برفع الأمر إلى الملك، لأن السفينة من سفنه، والاعتداء عليها اعتداء على أموال الملك. وتمكن الرجل بدهائه من تهدئة الخواطر. ورفع الأمر فعلاً إلى شارلكان، فانتصر الملك لماجلان وأمر بمعاقبة المعتدين وتأنيب رجال الشرطة. وهكذا فشلت الدسيسة التي حاك ألفاريز خيوطها...

نعم، فشلت الدسيسة. ولكن العقبات كانت تتوالى وكان كل يوم يحمل معه حادثاً جديداً. ووقف موظفو بيت الهند موقفاً سلبياً عرقل أعمال ماجلان حتى اضطر إلى الاستعانة بالملك مباشرة، فصدر مرسوم ملكي موقع عليه بيد الملك يدعو الموظفين إلى العمل بنشاط، وعندئذ فقط خرجوا عن جمودهم.

وفجأة، ادعى صراف بيت الهند أن الخزانة خاوية وأوشكت الرحلة أن تتعطل بسبب عدم توافر المال، ولكن إرادة ماجلان الحديدية تتغلب على كل الصعاب. فقد حمل البلاط على دعوة الماليين إلى الاهتمام بالمشروع. وأنشأ كريستوفر دي هارو شركة جمعت ما يلزم من المال لتسديد بقية النفقات. فحلت المشكلة المادية على أحسن وجه.

وحان موعد اختيار البحارة والعمال للانضمام إلى الحملة، فاتضح أن هذا من الصعوبة بمكان. فبالرغم من الدعوة العامة التي أذيعت في المدينة وفي الموانئ الأخرى، لم يتمكن ماجلان من جمع مئتين وخمسين رجلاً كان في حاجة إليهم، لأن خصوم ماجلان نشروا بين الناس إشاعات مقلقة عن رحلته المرتقبة حتى اعتقدوا أن السفر معه مخاطرة لا تؤمن عواقبها، فتردد البحارة في الالتحاق بالحملة.

وأخيراً، وجد الرجل العدد الكافي من المرتزقة من كل جنس ولون، فكان بينهم البرتغالي والإسباني والزنجي والألماني والفرنسي والإنجليزي والقبرصي وغيرهم. وكان كل رجل من ذلك الخليط العجيب مستعداً لبيع نفسه للشيطان مقابل أجر زهيد، وأمل في الحصول على أرباح باهظة في المستقبل.

ولم تكن الصعوبات قد ذللت كلها. فقد اعترض بيت الهند على وجود عدد

كبير من البرتغاليين في الحملة وقال إنه لن يدفع أجراً لأولئك الأجانب. ولكن ماجلان عالج المشكلة بالحزم كعادته. فكتب إلى الملك، وكان رد الملك في هذه المرة أنه لا يريد الإساءة إلى مانويلو باستخدام عدد كبير من البرتغاليين، وقرر ألا يزيد عددهم على خمسة. وكان شارلكان في الواقع يخشى أن يؤلف ماجلان مع أولئك البرتغاليين كتلة واحدة يستغلها لحسابه.

وهكذا كان ماجلان يواجه كل يوم عقبة يذللها. وأصبحت السفن متأهبة للرحيل. غير أن ألفاريز لم يفقد كل أمل في النيل من ماجلان، فعمد إلى سهم مسموم كان آخر السهام في كنانته!

حاول الجاسوس البرتغالي أن يدخل في روع ماجلان أن الإسبانيين سوف يغدرون به في الطريق، وينتزعون منه القيادة بعد أن يدلهم على المنفذ الذي يعرفه، فهو إذن يلقي بيديه إلى التهلكة، وخير له أن يتدبر الأمر ويقلع عن عزمه قبل فوات الأوان...

وكان لهذا السهم المسموم أثره في نفس ماجلان لأول وهلة. فقد فكر في الأمر حقاً، وخيل إليه أن شيئاً من الغموض يكتنف موقف البلاط وبيت الهند والضباط الإسبانيين بالنسبة إليه، وأن معاملتهم له يعروها بعض التحفظ. فهل يكون ألفاريز الدساس صادقاً؟

أدرك ماجلان في تلك اللحظة أنه قد يصبح وحيداً ضد الجميع، لا يمكنه الاعتماد إلا على نفسه. ولكنه لم يترك لليأس منفذاً إلى صدره. وتجلت عظمة الرجل مرة أخرى عندما قرر في تلك اللحظة الرهيبة، لحظة الشك، أن يواجه مصيره وحده إذا لزم الأمر!

لابد من الانطلاق إلى الأمام. والموت وحده القادر أن يثني ماجلان عن مشروعه. وهذا ما أدركه ألفاريز أيضاً، فكتب إلى مانويلو يقول: «لعل الله يهلكهم جميعاً في مجاهل البحار، فيهدأ قلق جلالتكم، ويبقيكم الله أسعد ملوك الأرض».

* * *

لم ييأس ماجلان، ولكن عقارب الشك دبت في قلبه، فهو منذ هذه اللحظة يرى نفسه - أو يخيل إليه - أنه محاصر بالأعداء على ظهر سفينته. غير أن هذا الشعور لم ينل من إرادته الحديدية بل زادها صلابة وشحذ شجاعته، فالربان الذي يرى العاصفة مقبلة يعلم أن خير وسيلة لإنقاذ السفينة وركابها هي أن يقبض بنفسه على دفتها...

وإذا كان لابد من أن يصبح ماجلان وحيداً، فهو يريد أن ينطبق عليه هذا

الوصف من جميع الوجوه. فقيادة الحملة يجب أن تظل في يده وحده، لا يشاركه فيها أحد. وأخذ يفكر في التخلص من شريكه فاليرو الذي أصبح عبئاً ثقيلاً، لتدخله في كل شيء، وميله الدائم إلى المشاكسة والعراك. ففي هذه الرحلة سيكون فاليرو مصدر إزعاج ومضايقة. وماجلان في حاجة إلى كل حريته ليواجه ما قد ينشب على ظهر السفن من فتن وخلافات.

ولا نعلم - على التحقيق - كيف تصرف ماجلان للتخلص من شريكه، ولعل فاليرو نفسه استطلع الغيب، فتبين أنه لن يعود حياً من تلك الرحل، فعدل من تلقاء نفسه عن مزاملة صديقه، ورفع استقالته من وظيفته إلى الملك، فأصدر مرسوماً بقبولها، واعداً فاليرو بأن يجهز في المستقبل حملة يسند إليه قيادتها!

ووضع فاليرو بين يدي ماجلان خرائطه ورسومه ووثائقه، وأصبحت الحملة منذ تلك اللحظة عملاً خاصاً بماجلان دون سواه، فكل شيء تابع له... وهو مسؤول عن كل شيء. وعندئذ فقط شعر بالفرح يغمر نفسه، لأنه استقل بتحقيق مشروعه العظيم دون شريك ينازعه شرف النصر المرتقب!

الرحيل
٢٠ سبتمبر ١٥١٩

في ١٠ أغسطس ١٥١٩، أي بعد سنة وخمسة أشهر منذ وقع شارلكان عقد الاتفاق، أقلعت السفن الخمس من مرفأ أشبيلية، هابطة نحو سان لوكار حيث يصب نهر الوادي الكبير في البحر. فهناك يجب أن تفتش القافلة للمرة الأخيرة. ولكن الرحلة قد بدأت فعلاً. وفي كنيسة سانتا ماريا، ركع ماجلان على ركبتيه وأقسم يمين الولاء للملك، وحوله رفاقه جميعاً وجمهور من المعجبين الخاشعين، وتسلم من مندوب البلاط الراية الملكية. ولاشك أنه تذكر في تلك اللحظة، أنه قبيل رحلته الأولى إلى الهند ركع أيضاً في الكنيسة وأقسم يمين الولاء. ولكن ذلك كان أمام راية أخرى، الراية البرتغالية، وملك آخر، مانويلو ملك البرتغال. وكما كان الشاب ماجلان ينظر يومئذ بعين الاحترام إلى أمير البحر «الميدا»، وهو يرفع رايته الحريرية خافقة فوق رؤوس الحاضرين الراكعين، فإن مئتين وخمسين رجلاً، هم رفاق ماجلان، يرمقون اليوم قائدهم في إجلال وإكبار!

وفي ميناء سان لوكار، أمام قصر مدينة سروينا، فحص ماجلان سفنه للمرة الأخيرة، فطاف فيها جميعاً قبل أن تمخر عباب المحيط، كأنه فنان يفحص آلته الموسيقية ويجربها قبل العزف عليها.

إنه يعرف سفنه واحدة واحدة معرفة دقيقة. ولقد فزع يوم وقع نظره على تلك السفن البالية، ولكن العمل الذي تم منذ ذلك اليوم جدير بالإعجاب. فإن تلك السفن القديمة قد تم تجديدها من السطح إلى القاع. وماجلان نفسه هو الذي أشرف على

تركيب كل قطعة من الخشب، وفحص بدقة كل حبل من الحبال، وكل مسمار وكل لولب. والقلوع التي رسمت عليها صورة القديس جاك، حامي إسبانيا، مصنوعة من قماش متين، وأماكن الرقابة أعيدت إلى حالتها الأولى، وكل شيء في محله يلفت النظر بنظافته.

لا أحد يجرؤ الآن على الاستهزاء بهذه السفن الجديدة. نعم إنها لا تصلح للسباق. ولو ظهرت فيه لأثار منظرها الضحك. فهي مستديرة الشكل، ثقيلة، ضخمة، ولكنها واسعة عميقة، يمكن تخزين المؤن فيها، والاعتماد عليها عندما تثور العواصف. فهي قادرة، على ما يظن، أن تقاوم أشد الحالات سوءاً من هذه الناحية.

أطلق على أكبر السفن الخمس اسم «سان انطونيو» وحمولتها مائة وعشرون طناً. غير أن ماجلان ـ لأسباب نجهلها ـ عهد بقيادة هذه السفينة إلى جوان دي كرتاجينا، ووقع اختياره على السفينة «ترينيداد» لرفع علم القيادة عليها، وحمولتها تقل عن حمولة السفينة الكبرى عشرة أطنان. ثم تجيء السفينة «كونسبسيون» وحمولتها تسعون طناً، بقيادة جسبار كويسادا، والسفينة «فكتوريا» وحمولتها خمسة وثمانون طناً، بقيادة لويس دي مندسا. وستشرف هذه السفينة الاسم الذي تحمله، ومعناه «النصر» وأخيراً السفينة «سنتياغو» وحمولتها خمسة وسبعون طناً، بقيادة جوان سراو.

أما السفن الصغيرة، فإنها نظراً لعمقها المحدود وخفة حركاتها، ستستخدم في أعمال الكشف وقياس الأعماق. وقد كان لتفاوت السفن في الحمولة والشكل فوائد جمة. وتعمد ماجلان اختيارها من أنواع مختلفة. ولكن لابد له من الاستعانة بنبوغه في شؤون الملاحة، ليتمكن من قيادة تلك السفن الخمس المتفاوتة.

* * *

كان ماجلان يتنقل من سفينة إلى أخرى، موجهاً انتباهه على الأخص إلى شحنة المؤن. فكم صعد السلالم ثم هبط، وكم قام بجرد محتويات السفن بنفسه. وما زال في وسعنا حتى يومنا هذا، بفضل المحفوظات العديدة، أن ندرك كيف بلغت الدقة في إعداد التفاصيل لرحلة من أعجب رحلات التاريخ. فإن الوثائق المحفوظة تنبئنا بثمن كل مطرقة، وكل منشار، وكل رزمة من الورق. وتلك الأرقام المتراصة في أعمدة متتابعة، والتي دونتها يد هادئة، بجميع ما يتعلق بها من تفاصيل، تدلنا بأبلغ بيان، على مدى عبقرية ذلك الرجل وصبره الجميل.

إن ماجلان بحار مجرب. وهو يدرك أهمية الاستعداد لرحلة طويلة في أصقاع مجهولة. ويعلم أن أصغر شيء يتناوله النسيان عند الرحيل، بسبب الإهمال وعدم الاكتراث، لا يمكن أن يعوض. فإن أصغر رزمة من القطن، أو أقل قطعة من الرصاص، أو قدراً بسيطاً من الزيت، قد يكون له في الغد، في تلك الأصقاع المجهولة، قيمة تفوق قيمة الذهب والدم! وقد يؤدي نسيان قطعة صغيرة إلى شل حركة سفينة كاملة وجعلها غير صالحة للملاحة. وخطأ واحد في الحساب قد يؤدي إلى فشل الرحلة كلها.

ولهذا كان هدف التفتيش الأخير الوثوق من أن مواد التموين على ما يرام. فما هي حاجات خمس سفن، ومئتين وخمسين رجلاً، في رحلة لم يحدد هدفها أو تعرف مدتها؟ إن التقدير عسير، ولكن ماجلان لا يطلع رجاله على الحقيقية فهو وحده يعلم أنه قد تمر شهور بل سنوات، قبل أن تتمكن القافلة من تجديد تموينها بمقادير كافية من المواد الغذائية. إذن، فخير له أن يحمل منها قدراً يفيض عن الحاجة من أن يحمل قدراً لا يفي بها.

إن أساس الغذاء في البحر الخبز المجفف. وقد وضع ماجلان منه في السفن ٢١٣٨٠ «ليبرة»، بلغ ثمنها ٣٧٢٥١٠ مرافيدي[1] وقدر ماجلان أن هذه الكمية تكفي سنتين. وإذا نظرنا في بقية الأرقام الخاصة بمواد التموين، فإنه يخيل إلينا أننا أمام باخرة من عابرات المحيط في عصرنا الحاضر، حمولتها عشرون ألف طن، لا أمام خمس سفن تتراوح حمولتها بين خمسمائة طن وستمائة، إذ أن سعة الطن في ذلك الوقت كانت تزيد على سعته الآن بنحو العشر.

وتكدست الأشياء في بطون السفن الخمس... فبجانب أكياس الدقيق، واللوبيا، والعدس، والأرز، والحبوب الأخرى، وضعت ٥٧٠٠ ليبرة من لحم الخنزير المملح، و٢٠٠ برميل من السردين، و٩٨٤ قطعة من الجبن، و٤٥٠ رزمة من الثوم والبصل، ويضاف إلى ذلك كله أطعمة أخرى لذيذة منها ١٥١٢ ليبرة من العسل، و٣٢٠٠ ليبرة من الزبيب واللوز، وكميات كبيرة من السكر والخل والخردل، وفي آخر لحظة، نقلت إلى ظهر السفن سبع بقرات حية ـ ولكن هذه البقرات السمان لن تعيش طويلا!...

(١) الليبرة توازي خمسمائة جرام أي نصف كيلو . والمرافيدي عملة إسبانية اسمها مشتق من كلمة «مرابطي» العربية لأن الولاة المرابطين العرب هم الذين أدخلوها في إسبانيا . والمرابطي يعادل نحو سنتيم ونصف من قيمة الفرنك الأصلية .

وهكذا، ضمن رجال الحملة الحصول في الأيام الأولى من رحلتهم على اللبن ثم على اللحم الطازج، غير أن النبيذ في نظر رجال السفن أهم من اللبن، وقد أراد ماجلان أن يحتفظ بالروح المعنوية بين رجاله، فابتاع من أجود أنواع الخمر من مدينة شرش ما لا يقل عن ٤١٧ قربة و٢٥٣ برميلاً، وهيأ لكل رجل كأسين من النبيذ لعامين كاملين!

حمل ماجلان قائمة هذه الأشياء كلها بيده، وطاف في سفنه يراجع ويفتش. فهل فكر وقتئذ في المتاعب التي تحملها لتزويد سفنه بتلك الأشياء كلها، وعدها، ودفع ثمنها؟

إن كل شيء في مكانه الآن، وفي السفن ما يحتاج إليه مائتان وخمسون رجلاً خلال هذه الرحلة. وقد صنع ماجلان من أجلهم كل ما يجب أن يصنعه. غير أن السفن أيضاً تشبه الكائنات الحية. وهي تفقد بعض قدرتها على الملاحة، بعد كل رحلة في البحار. فالرياح تمزق القلوع، وتلوي الحبال وتقطعها. ومياه البحر تأكل الخشب وتفسد الحديد. والشمس تحرق الدهان. والظلام يستهلك قدراً من الزيت والشمع. ولهذا، فلابد من قطع التغيير: المراسي، والحبال، والحديد، والرصاص، وجذوع الأشجار، والقماش، حتى يسرع البحارة عند الضرورة إلى إصلاح كل عطل وضرر. ولابد أيضاً من كميات من القطران والشمع والقطن لسد كل ثغرة تحدثها الزوابع. ولابد من أدوات النجارة كاملة. ومن الشباك و«الصنانير» لاصطياد السمك في الطريق، لأنه سيكون، مع الخبز المجفف، أساس الغذاء في الرحلة.

ونقلت إلى السفن أربعمائة ليبرة من الشمع للإضاءة، و٨٩ مصباحاً. كما نقلت جميع الأدوات الخاصة بالملاحة والفلك وتقدير المسافات وغيرها من شؤون الربابنة في البحار. وقدر ماجلان ما قد يقع من الحوادث الأليمة، فوضع في السفن كميات من الأدوية والعقاقير والأدوات الجراحية. كما وضع سلاسل لتقييد العصاة المتمردين من البحارة. ولم ينس في النهاية الآلات الموسيقية فجلب عدداً منها لتسلية رجال الحملة في الطريق!

وليس الذي ذكرناه إلا جزءاً مما تحمله سفن ماجلان، وقليلاً من آلاف الأشياء التي يحتاج إليها الأسطول ورجاله في هذه الرحلة. فالسفن بمن عليها من رجال لا ترسل إلى بعيد للنزهة، بعد أن كلفت نحو ثمانية ملايين مرافيدي. ولن تعود هذه السفن إلى قواعدها حاملة معها معلومات جغرافية فقط، بل يجب أن تعود بربح

مادي على الذين ساهموا في نفقات تجهيزها. ولهذا، فلابد من أن تأخذ معها طائفة من السلع تتيسر المقايضة بها على البضائع التي عقدت الآمال على جلبها من الأقطار النائية. وماجلان يعرف - بعد رحلاته السابقة - ما يعجب سكان الجزر الفطريين، ويعرف على الخصوص أن هناك شيئين لهما في كل مكان وقع شديد: المرايا التي يرى فيها سكان الجزر صورهم للمرة الأولى في حياتهم، والأجراس الصغيرة التي يلهون بها كالأطفال. وعلى هذا الاعتبار، وضع ماجلان في سفنه عشرين ألفاً من تلك الأجراس، وتسعمائة مرآة صغيرة، وعشر مرايا كبيرة - ومعظمها سوف يتحطم في الطريق - وأربعمائة سكين من صنع ألمانيا، وستمائة مقص، وعدداً كبيراً من المناديل الملونة، والقلانس الحمراء، والأساور النحاسية، والأمشاط، والحلى الزائفة، وقطع الزجاج.

وأخذ معه أيضاً ثياباً تركية ليرتديها زعماء القبائل في الحفلات الرسمية، وأقمشة من القطيفة والصوف ذات الألوان المنوعة، وهي كلها سلع لا تزيد قيمتها في إسبانيا على قيمة التوابل في جزر ملوك، ولكنها تتفق مع الأغراض التجارية للرحلة، ولهذا طلب أصحاب هذه السلع الرخيصة أضعاف ثمنها من ماجلان.

وليس لتلك الأمشاط والقلانس، والمرايا والدمى، قيمة طبعاً إلا إذا أظهر سكان الجزر استعدادهم لإعطاء سلعهم مقابلها. ولهذا أعد ماجلان العدة لخوض القتال إذا لزم الأمر. فجهز ثمانية وخمسين مدفعاً، وسبع قاذفات طويلة، وثلاث قاذفات صغيرة ثقيلة، تبرز فوهاتها خلال نوافذ السفن، وقنابل مصنوعة من الحديد والحجارة تتراكم في قاعها، فضلاً عن أطنان عديدة من الرصاص، معدة لصب قذائف جديدة، وألف رمح، ومئتي حربة، ومئتي ترس، معدة للاستخدام في أول فرصة سانحة. وكان نصف رجال الحملة تقريباً مزودين بالدروع والخوذ وقد جيء من مدينة بلبوا بعدتين مدرعتين كاملتين للقائد العام، تغطيانه بالحديد من رأسه إلى قدميه، وتظهر أنه أمام سكان الجزر في مظهر كائن فوق البشر لا يمكن قهره.

إن ماجلان عازم على اجتناب القتال، ولكن حملته لا تقل في تجهيزها الحربي عن حملة فرناندو كوريتز الذي فتح بها إمبراطورية في تلك السنة ذاتها، سنة ١٥١٩، على رأس قبضة من الرجال[1].

---

(١) فرناندو كوريتز مغامر إسباني فتح المكسيك في سنة ١٥١٩، واقترف من الفظائع ما يعجز القلم عن وصفه. وقد ولد في سنة ١٤٨٥ ومات في سنة ١٥٤٧.

والآن يقف ماجلان ليلقي نظرة أخيرة على الرجال الذين يرافقونه في رحلته. ولم يكن اختيارهم من الأمور السهلة. فقد اقتضى انتزاعهم من أزقة الموانئ وحاناتها أسابيع عديدة. وقد جاؤوا إليه بأطمار بالية، قذرين، متململين، يلهجون برطانات عجيبة لا يتصورها العقل: تختلف من الإسبانية، إلى الإيطالية، إلى الفرنسية، إلى البرتغالية، إلى الألمانية. ولابد أن يمضي زمن قبل أن تصهر تلك الجنسيات المتباينة في بوتقة واحدة متينة أمينة منظمة. ولكن ماجلان سيعرف كيف يتحكم فيهم بعد بقائهم بضعة أسابيع. فقد عمل من قبل بحاراً بسيطاً ورئيس شعبة من البحارة. ولهذا، فهو يعرف جيداً ما يحتاج إليه رجال البحر، وما ينبغي أن يطلب منهم، وكيف يجب أن يعاملهم. فالرجال ليسوا مصدر مخاوفه، وإنما مصدرها أولئك الربابنة الإسبانيون الأربعة الذين ألحقوا بالحملة قواداً للسفن الأخرى. فإن التفكير فيهم يجعله يضغط أعصابه كما يفعل المصارع قبل المباراة. فهذا جوان دي كرتاجينا يحدجه بنظرات ملؤها البرود والكبرياء والاحتقار. وهو المراقب الذي يمثل الملك. وقد حل مكان فاليرو في قيادة السفينة «سان انطونيو».

نعم إن جوان دي كرتاجينا ملاح مجرب، واستقامته لا يرتاب أحد فيها، وليس له مطامع خاصة في الوقت الحاضر. ولكن أيستطيع هذا الرجل أن يكبح جماح أطماعه في المستقبل؟ إن ماجلان ينظر إلى جوان دي كرتاجينا، ويتذكر كلمات ألفاريز الجاسوس، الذي قال له إن بين رجال الحملة من زود مثله بتعليمات وسلطات خاصة لن يعرفها إلا بعد فوات الوقت.

ولويس دي مندوسا لا يبدو أقل عداء نحوه من جوان دي كرتاجينا. وهو قائد السفينة «فكتوريا» فقد سبق له أن رفض أوامره في أشبيلية، ولا يسعه أن يتخلص منه لأن الإمبراطور هو الذي اختاره صرافاً للحملة.

نعم إن هؤلاء الضباط قد أقسموا له على الطاعة والإخلاص في كنيسة سانتا ماريا، في ظل العلم المنشور. ولكن هذا لا يعني شيئاً... فإنهم يضمرون له العداء في قلوبهم ويجب عليه أن يكون على حذر.

ومن حسن حظه أنه استطاع مخالفة المرسوم الإمبراطوري، وضم إلى رجال الحملة، بالرغم من اعتراضات بيت الهند، ثلاثين برتغالياً من مواطنيه، بينهم أهل وأصدقاء مخلصون. وفي مقدمتهم أخو زوجته، دوارتي بربوسا، وهو ملاح ماهر بالرغم من صغر سنه، وألفارو دي مكستا، وهو من أقربائه، واستافو غوميز، من

أمهر قادة السفن، وجوان سراو، قريب فرانشسكو سراو، وقد سبق له القيام برحلات بعيدة مع بيزارو[1] وبدرو دارياس، وأخيراً جوان كرفالو، الذي أقام ردحاً من الزمن بالبرازيل، والذي يرافقه في هذه الرحلة ابنه المولود هناك من أم برازيلية. وهؤلاء جميعاً يعرفون البلدان التي تيمم شطرها الحملة ويجيدون لغات سكانها، ففي وسعهم أن يؤدوا خدمات جليلة.

وإذا وفق ماجلان في الذهاب من البرازيل إلى جزر ملوك التي تنتج التوابل، فإن عبده هنريك سيكون له خير ترجمان. وعلى هذا، فإن ماجلان على ثقة تامة من اثني عشر رجلاً من رجاله البالغين مئتين وخمسين تتألف منهم الحملة كلها. وليس هذا بالكثير... ولكن، ما دام الأمر كذلك، فعلى ماجلان أن يدبر أموره على هذا النحو.

* * *

عرض ماجلان رجاله واحداً واحداً... وحدق فيهم متسائلاً: من في هؤلاء يا ترى يفي بعهده في ساعات الشدة، ومن منهم يخونه؟ ولاشك في أن الإجهاد في التفكير قد قطب جبينه. غير أن أساريره تبسطت فجأة، ولاحت على شفتيه ابتسامة. يالله! لقد أوشك أن ينسى الرجل الذي هرع إليه في اللحظة الأخيرة، بصورة غير منتظرة. فإن المصادفات وحدها هي التي دفعت «أنطونيو بيجافيتا» ذلك الشاب الإيطالي الهادئ المتواضع، سليل إحدى الأسر العريقة في فينيسيا، إلى تلك المجموعة المتباينة من البحارة والمغامرين. فقد جاء ذلك الشاب، وهو من جمعية فرسان رودس، إلى برشلونة مع مندوب البابا لدى بلاط شارلكان، فسمع برحلة غامضة يزمع بعضهم القيام بها عن طريق غير مألوفة إلى جهات لم يبلغها أحد بعد. ويغلب على الظن أنه قرأ كتاب أمريكو فسبوسي[2]، الذي نشر سنة ١٥٠٧، والذي ضمنه الرحالة ذكريات أسفاره. كما يغلب على الظن أيضاً أنه أعجب بكتاب «الرحلات» الذي وضعه مواطنه فارتيما. وهو كذلك يحن إلى رؤية الأشياء العظيمة في المحيطات. وقد أبدى رغبته هذه إلى شارلكان فأوصى به ماجلان. وهكذا، برز

---

(١) فرانشسكو بيزارو مغامر إسباني، ولد في سنة ١٤٧٥، ومات في سنة ١٥٤١، وقد فتح بلاد بيرو بأمريكا الجنوبية سنة ١٥٣٢، واقترف بها فظائع مروعة.

(٢) أمريكو فسبوسي، رحالة إيطالي، ولد في سنة ١٤٥١ ومات في سنة ١٥١٢. وقد ذهب أربع مرات إلى العالم الجديد بعد أن اكتشفه كريستوف كولومب، وأطلق علماء الجغرافيا اسمه على ذلك العالم فعرف باسم «أمريكا».

فجأة بين أولئك الملاحين، والباحثين عن الذهب، والمغامرين، ذلك الرجل ذو المثل العليا، الذي لا يندفع في المغامرة سعياً وراء الجاه أو طمعاً في المال، بل حباً في السفر، وإرضاء لرغبته في رؤية أشياء جديدة، ودراسة معالم الدنيا ومشاهدة بدائعها.

ذلك هو الرجل الذي سوف يصبح بالنسبة إلى ماجلان أهم رفاقه. إذ ما قيمة العمل الذي لا يتحدث عنه الرواة. إنه عمل لا يدخل التاريخ لأن الأجيال القادمة لن تتناقل أنباءه وأقاصيصه. وما نسميه نحن «التاريخ» ليس سلسلة الحوادث التي تتابعت في الزمان والمكان، بل هو ما ذكر فقط من الحوادث في مؤلفات العلماء والشعراء. ولو لم يوجد المؤرخ الذي يروي، والفنان الذي يخلد الذكرى، لطوى الظلام مشاهير الأبطال. ولاندثرت أعظم الأعمال روعة وما كان أحد ليعرف في هذه الآونة شيئاً يذكر عن ماجلان ورحلته، لو كان ما بين أيدينا الآن لا يعدو الكتيب الذي وضعه بيير مارتير، والرسالة التي كتبها مكسيميليان ترتسلفانوس، والمذكرات الجافة التي دونت في سجلات السفن. فإن ذلك الشاب وحده بيجافيتا، فارس رودس، الذي كان يبدو أقل رجال الحملة فائدة، هو الذي نقل إلى الأحقاب ذلك العمل العظيم الذي قام به ماجلان.

نعم، إن بيجافيتا الطيب القلب لا يمكن أن يقارن بمؤرخين مثل تاسيت وتيت ليف. فهو في أسلوب كتابته، كما هو في ميله إلى المغامرة، هوائي ظريف. ومعرفة الناس ليس من مزاياه. ولهذا يخيل إلينا أنه لم يعرف شيئاً من الخلافات التي نشبت بين ماجلان وربابنة السفن. غير أن تجاهله لسير الحوادث بصورة عامة، جعله يهتم بالتفاصيل، فيدونها بدقة كما يفعل التلميذ حين يقص رحلة أسبوعية. وشهادته ليست دائماً مصدقة، لأنه يؤمن بكل ما رواه البحارة له من أكاذيب، بعدما فطنوا إلى أنه حديث العهد بالمهنة، يجوز عليه كل شيء.

ولكن بيجافيتا يجعلنا ننسى تلك الهفوات بدقته في وصف جميع الحوادث حتى التافه منها، وقد بلغ من الدقة أن دون في مذكراته ما سمعه من كلمات سكان بتاجونيا[١] الذي كان يخاطبهم بالإشارة، وإليه يرجع الفضل في وضع أسس أول قاموس للغات الأمريكية.

---

(١) بتاجونيا : إقليم واقع في طرف أمريكا الجنوبية ، جنوب جمهوريتي شيلي والأرجنتين ، ويقع شطر منه في كل من الجمهوريتين .

ومن مفاخر بيجافيتا، أن شكسبير قد استعان فيما بعد بالصفحات التي كتبها يصف ثورة البحر وهياجه، فجعلها الشاعر الكبير مشهداً في مسرحيته الشهيرة «العاصفة». وأي شيء أجمل من هذا يتمناه كاتب صغير؟ فقد اختار عبقري عظيم صفحات من مؤلفه، أدخلها في مسرحية خالدة، فارتفع به كالنسر في أعلى أجواء الخلود!

* * *

لقد انتهى ماجلان من تفتيشه للسفن، وفي وسعه الآن أن يؤكد أنه أدخل في حسابه كل احتمال يمكن أن يخطر في بال بحار واسع التجارب. غير أن كل رحلة نحو هدف مجهول تنطوي على احتمالات غير مقدرة. والرجل الذي يدرس مدققاً جميع وسائل النجاح في رحلة مثل هذه، يجب عليه أيضاً أن يقدر لرحلته الفشل، ولنفسه عدم العودة إلى بلاده. ولهذا، فإن ماجلان قد كتب وصيته قبل رحيله بيومين.

ولا يسع المرء أن يطالع هذه الوصية بدون أن يتولاه التأثر. فإن هذا الرجل الذي يدون إرادته الأخيرة يحسب، على وجه التقدير، ما يتركه لورثته. ولكن، كيف يمكن لماجلان أن يقدر ثروته؟ وماذا يكون بعد سنة؟ أيكون متسولاً بائساً أم ثرياً في قمة الثراء؟ هذا سر وراء الغيب، فإن كل ما يملكه الآن عقد مبرم بينه وبين التاج. فإذا نجحت الرحلة، ووجد ماجلان المنفذ الذي يصل المحيطين وبلغ جزر التوابل ثم عاد منها بغنائم موفورة، فإنه سيعود إلى إسبانيا غنياً مثل قارون. وسيتوارث أبناؤه من بعده وأحفاده من بعدهم لقب «حاكم». أما إذا قدر له أن يضل الطريق، فلم يجد الممر المنشود، وذهبت سفنه حطاماً في البحر، فإن زوجته وابنه سيمدان الأكف للناس على أبواب الكنائس!

وفي وسع السماء وحدها، سيدة الرياح والأمواج، أن تحبط المشروع أو تنجحه، ولذلك فإن ماجلان المؤمن الورع، يستسلم لإرادة الله. وقبل أن يذكر في وصيته الناس، ذكر «الله القادر الذي بيده مقاليد كل شيء». فالرجل المتدين هو الذي يتكلم أولاً، ثم النبيل فالزوج فالأب.

وإن ماجلان ليظل محتفظاً بصفاء ذهنه وقدرته على التنبؤ حتى في مثل هذا الظرف، وقد كان ذلك شأنه في جميع أطوار حياته. فعندما كتب وصيته ذكر فيها جميع الاحتمالات، وأوصى إذا قدر له الموت في إسبانيا أن يدفن في أشبيلية، في ضريح منفرد بكنيسة سانتا ماريا. وإذا حم قضاؤه في أثناء السفر، فهو يرغب أن ينقل جثمانه ويدفن في أقرب كنيسة مكرسة للعذراء مريم.

ويحدد ماجلان في وصيته توزيع الهبات بدقة أملتها روح مشبعة بالتدين. فهو يخص بجزء من عشرة من خمس دخله ثلاث كنائس في أشبيلية ومونسرات وأويوبورتو. ويخص كنيسة أخرى في أشبيلية بألف مرافيدي، لأنه صلى فيها قبيل سفره ويأمل أن يصلي فيها إذا أراد الله له العودة. ويخص مؤسسات دينية أخرى ومستشفيات بمبالغ مختلفة، راجياً من الذين ستصل هذه المبالغ إليهم أن يصلوا لله من أجل راحته في الأبدية، ويرغب أن توزع الأقوات والثياب على الفقراء بعد موته.

أما وقد انتهى من الناحية الدينية والإنسانية، فهل يلتفت إلى زوجته وابنه؟ كلا! إنه يفكر في عبده هنريك ومصيره، فيقول إنه ابتداء من يوم وفاته، يصبح عبده هنريك، المولود في مدينة ملقة، والبالغ من العمر ستاً وعشرين سنة، حراً من كل قيد، يصنع ما يشاء وكيفما يشاء. ويجب أن يؤخذ من تركته عشرة آلاف مرافيدي نقداً للإنفاق منها على عبده القديم.

والآن فقط، بعد أن فكر في حياته الأخرى، وفرغ من أعمال البر التي تشفع له عند الله، حول اهتمامه إلى أسرته. ولكن شيئاً آخر يشغل باله قبل التوصية بثروته المشكوك فيها لزوجته وابنه، ذلك هو الحفاظ على اسمه شعار أسرته. فإنه يختار من أقاربه من الدرجة الثانية أو الثالثة، الرجل الذي سيؤول إليه الشعار إذا مات ابنه قبله. وهكذا دبر ماجلان المؤمن أمر الخلود في الآخرة، كما دبر ماجلان سليل النبلاء أمر الخلود في هذه الدنيا!

وأخيراً، اتخذ جميع التدابير وحررت جميع البنود. ووقع أمير البحر على الوثيقة بخط رصين جاف: «فرناو دي ماجلانس». وقد ظن ماجلان أن توقيعه وتوقيعات الشهود التي تثبت صحة الوثيقة ضمان نهائي لتنفيذ إرادته الأخيرة. ولكن الأقدار لا تتقيد بجرة قلم. ولا تستجيب لكل التمنيات وقد أرادت الأقدار ألا تتحقق رغبة واحدة من تلك الرغبات، وأن تحبط التدابير الدقيقة التي ذكرناها، وتبقى وصية ماجلان حبراً على ورق، والذين جعلهم ورثته لن يأخذوا شيئاً. والفقراء الذين فكر فيهم لن يجدوا عزاء. وجثمانه لن يدفن في المكان الذي كان يريده. وشعاره سيفقد إلى الأبد.

وأما الذي يمكث بعده، فالعمل العظيم الذي اضطلع به. والبشرية وحدها ستكون وريثته الحافظة للجميل!

أما وقد أدى ماجلان آخر واجباته قبل أن يغادر البر، فقد أزفت ساعة الرحيل.

وها هي زوجته التي عرف معها أول سنة سعيدة في حياته، واقفة أمامه مضطربة، تحمل بين ذراعيها الطفل الذي رزقاه وتشهق باكية، فيقبلها ماجلان آخر مرة، ويصافح بربوسا، الذي يصطحب معه ابنه الوحيد، ثم يصعد مسرعاً إلى الزورق الذي سيحمله إلى سان لوكار، حيث تنتظره السفن.

وصلى ماجلان مع رجاله للمرة الأخيرة في كنيسة سان لوكار الصغيرة. وعند الفجر - في يوم الثلاثاء ٢٠ سبتمبر سنة ١٥١٩ الذي سيصبح من الأيام التاريخية الخالدة - رفعت السفن مراسيها، ونشرت في الفضاء أشرعتها وأطلقت المدافع تحية للبر الذي يبتعد الآن ويختفي.

بحث فاشل

سبتمبر ١٥١٩ - أبريل ١٥٢٠

في ٢٠ سبتمبر ١٥١٩ ، شطت سفن ماجلان عن ساحل القارة الأوروبية. ولكن الممتلكات الإسبانية خارج أوروبا كانت في ذلك الوقت مترامية الأطراف بعيدة الامتداد . وعندما وصلت السفن بعد ستة أيام إلى تنريفي في جزر كناري، لتكملة حاجتها من المياه العذبة والمواد الغذائية، كانت لا تزال في نطاق الأقاليم الخاضعة لسلطة الإمبراطور. وأتيح مرة أخرى للمغامرين أن يطأوا أرض وطنهم، ويسمعوا لغة بلادهم، قبل أن يوغلوا في المناطق المجهولة.

غير أن هذه الوقفة لن تدم طويلاً. فقد تأهب ماجلان لإصدار أمره باستئناف الرحيل، وإذا بسفينة تترا ءى من بعيد قادمة من إسبانيا تحمل إليه رسالة سرية من حميه ديجو بربوسا ينبئه فيها بأنه علم بمؤامرة دبرها الربابنة الإسبانيون في السفن ترمي إلى خلع طاعته في أثناء الرحلة. وأما رأس المؤامرة، فهو جوان دي كرتاجينا ، ابن عم مطران بورجوس، الذي سبق أن أظهر لماجلان عداءه وحاول منعه من السفر.

وليس عند ماجلان ما يحمله على الشك في صحة هذا النبأ ، فقد جاء مصداقاً لما أنبأه به الجاسوس البرتغالي ألفاريز، ولكن، لقد قضي الأمر!

وتأهبت إرادة ماجلان لمواجهة الأخطار ، ولهذا فإنه يرد على حميه، قائلاً: إنه، مهما حدث، فسوف يظل وفياً للإمبراطور ، ولو كلفه ذلك حياته.

وأصدر ماجلان أمره برفع المراسي، دون أن يدع أحداً يفطن إلى النبأ السيئ الذي حملته إليه تلك الرسالة ـ وهي آخر رسالة تلقاها في حياته. ولم تمض ساعات

حتى كانت قمة جبل تنريف تختفي وراء الأفق. وكانت هذه آخر مرة رأى فيها كثير من رجال الحملة أرض وطنهم!

* * *

إن أشق مهمة في هذه الرحلة، هي إبقاء السفن قريباً بعضها من بعض، وبالرغم من تفاوت حمولتها وسرعتها. فإذا ضلت واحدة منها، فهي هالكة لا محالة في خضم المحيط اللانهائي. ولكي يتجنب ماجلان هذا الخطر وضع قبل الرحيل بالاتفاق مع بيت الهند، نظاماً خاصاً لضمان الاتصال بين السفن بصورة دائمة، فأعطيت للربابنة وقواد السفن، التعليمات الخاصة بسير القافلة المقرر، وأصبح على السفن جميعاً أن تتبع بكل بساطة ودقة، سفينة القيادة «ترينيداد» وهي تمخر العباب. وليس اتباع هذا الأمر عسيراً في النهار. فإن في وسع كل سفينة أن تبقى على مرأى من الأخريات، إن سجا البحر وهدأ أو أزبد وهاج. ولكن ذلك عسير بالليل، ولأجل ذلك يجب على السفن أن تعمل بذلك النظام الخاص، نظام الإشارات المضيئة. فعندما يغشى الليل يوضع في مؤخرة السفينة «ترينيداد» مشعل داخل مصباح زجاجي لتقتفي السفن الأخرى آثارها، فإذا رفع في مؤخرة سفينة القيادة مشعلان، كان على السفن الأخرى أن تبطئ في السير، أو تتمايل في طريقها بسبب الرياح المعاكسة، أما المشاعل الثلاثة فمعناها أن المطر يوشك أن ينهمر وأنه يجب ضم الأشرعة الصغيرة. فإذا رفعت أربعة مشاعل، وجب ضم القلوع كلها...

وإذا أشعلت النار على ظهر سفينة القيادة، أو أطلقت المدافع، كان على السفن أن تسير بحذر شديد، لاقترابها من القيعان أو كثبان الرمل القريبة من سطح البحر. وصفوة القول، أن النظام الذي وضعه ماجلان يقوم على إشارات مضيئة طبقاً للطوارئ المحتملة.

وعلى كل سفينة أن ترد في الحال على كل إشارة بإشارة مثلها، ليعلم القائد العام أن أوامره قد فهمت ونفذت. كما يجب على كل سفينة أن تقترب من سفينة القيادة، قبيل المساء، وتحيي أمير البحر بعبارة وضعت لهذا الغرض، وتتلقى منه التعليمات المراد تنفيذها خلال الليل. وبفضل هذا الاتصال اليومي، أصبح النظام مضموناً منذ اليوم الأول، فسفينة القيادة سائرة في طليعة السفن الأخرى تشق الطريق والربابنة يطيعون أوامر القيادة دون أن ينبسوا بكلمة.

غير أن هذا النظام ذاته هو الذي أزعج ربابنة السفن الأخرى إزعاجاً شديداً.

فـإن قـيـادة القـافلة تلبث دائمـاً في يد رجل واحد، وهي يد حـديدية قـاسـيـة. وهذا البـرتغالي الصامت الذي لا يقـتـرب منه أحـد، العنيـد في حفـاظه على سـره، يوقف الربابنة في الصف كل يوم كأنهم جنود جدد، ثم يصرفهم بعد أن يبلغهم أوامره!

لقد ظنوا بلا شك ـ وهو ظن في محله ـ أن مـاجلان لم يمتنع عن الإفـشـاء بأية معلومات عن سير رحلته وهدفها، إلا ليكتم سر الممر عن جواسيس الأعداء، وأنه سيخرج من صمتـه حين يصبح في عـرض البحر، فـيدعـوهم للاجتـمـاع به على ظهر سـفـينتـه، ويشـرح لهـم، على الخرائط، الخطة التي حرص على إخـفـائهـا حتـى تلك الساعة. ولكنهم رأوا مـاجلان قد ضاعف صمته وغموضه وعزلته. فهو لا يدعوهم إلى سفينتـه، ولا يسألهم رأيهم ولا يستـشيرهم أبداً. وما عليهم إلا أن يتبعوا علم القيادة نهاراً، ومشعل السفينة ليلاً، كما يتبع الكلب صاحبه. وقد احتمل الضباط الإسـبـانيـون في الأيام الأولى بشيء من الصبـر، مـا أبداه مـاجلان من عـزيمة في قـيـادتهم. ولكن، عندمـا لبث أمـيـر البـحـر سـائراً نـحـو الجنوب، في الطريق الموازي لساحل سيراليـون بإفريقيا، ولم يعـرج إلى الجنوب الغربي نحو البرازيل... قـرر جوان دي كرتاجينا، منذ ذلك المساء، أن يطالب بمعرفة الأسباب الداعية إلى ذلك.

ولابد أن نشـيـر إلى أن السـؤال الذي وجهـه دي كرتاجيـنا إلى مـاجـلان لم يكن بعيداً عن اختـصـاصـه، لأن معظم الذين كـتـبـوا عن هذه الرحلة، حاولوا تبرير سلوك مـاجلان بتـصـويرهم جوان كرتاجينا في صـورة الخائن. فإن ربان أكـبـر سفـن القـافلة، ومندوب التـاج الإسبـاني، يحق له في الـواقع أن يسـأل أمـيـر البـحـر لماذا عـدل طريق السير التي رسمت من قبل...

فـمـا هي الأسـبـاب التي دعت مـاجلان إلى تغـيـيـر طريقـه؟ هذا مـا لـم يعلمـه أحد... ولعله واصـل السيـر على طول السـاحل الإفريقي، حتى بلاد غـينيـا، ليـقـابل الرياح المقبلة من الغرب، وهذا سر من أسرار الملاحة عند البرتغـاليين كـان الإسبـانيـون يجهلونه. ولعله أيضـاً انحرف في طريقـه لينجو من السفن التـي أرسلها مـانويل ملك البرتغال إلى البرازيل للاستيلاء على سفنه.

ومهما تكن الأسـباب، فـإنه كان يسـهـل على ماجلان أن يبسط بصراحة للربابنة الآخرين العـوامـل التي حملتـه على سلوك طريق آخر. ولكن المسألة في نظره مسـألة مبدأ لا مسألة انحراف بضعـة أميال عن الطريق المرسوم. ولهذا، صمم على المحافظة على النظام في أسطوله منذ الساعة الأولى. وإذا كان في السـفن متـآمرون ـ كما أنبأه

بذلك حموه بربوسا ـ فالأفضل أن يزيحوا النقاب عن أنفسهم في الحال. وإذا كانت هناك تعليمات سرية أخفوها عليه، فلتعلن هذه التعليمات بلا إبطاء. وإنها لفرصة سانحة يعرف فيها ماجلان حقيقة جوان دي كرتاجينا، ويعلم مدى طاعته أو عصيانه.

والواقع أن مركز كل منهما تجاه الآخر يكتنفه الغموض. فإن جوان دي كرتاجينا كان قد عين بادئ الأمر رباناً للسفينة «سان أنطونيو» وعهد إليه بوظيفة أخرى تجعله مرؤوساً لماجلان. فلما نحى ماجلان شريكه فاليرو، خلفه جوان دي كرتاجينا وعين مساعداً لأمير البحر. واعتمد كل منهما على وثيقة رسمية تجعل أحدهما ماجلان قائداً عاماً للعمارة، وتجعل الثانية جوان دي كرتاجينا مراقباً لجميع حالات الإهمال وعدم التبصر التي تصدر عن الربابنة الآخرين.

ولكن هل يحق للمساعد محاسبة أمير البحر على تصرفه؟ هذه مسألة لابد من الفصل فيها. ولهذا، فإن ماجلان قد أجاب إجابة جافة على السؤال الذي وجهه إليه جوان دي كرتاجينا فيما يتعلق بتغيير الطريق، فقال: «إنه ليس لأحد أن يحاسبه على تصرفه، بل على الجميع طاعته بلا قيد ولا شرط!».

إن الإجابة قاسية... ولكن ماجلان يفضل العمل السريع الجاف على الالتجاء إلى التهديد أو التساهل. وقد أفهم بعمله هذا الربابنة الإسبانيين ـ وقد يكونون متآمرين عليه ـ أن لا أمل لهم في التغلب على إرادته، وأنه قابض على ناصية الأمور. غير أن ماجلان، الذي يتحلى بالنشاط والشدة، يفتقر إلى القدرة على تهدئة الخواطر بعد أن يضرب ضربته. فهو لم يتعلم كيف يصوغ الأوامر الجافة في ألفاظ رقيقة، أو يتحدث بلطف مع رؤسائه أو مرؤوسيه على السواء. وهذا ما يفسر كيف نشأ حواليه التوتر والعداء وازداد من ساعة إلى أخرى، إذ اتضح للربابنة أن تعديل السير الذي دهش له جوان دي كرتاجينا خطأ ظاهر أقدم عليه ماجلان.

فإن الرياح الغربية التي توقعها لم تهب. واضطرت السفن إلى الجمود في مكانها خمسة عشر يوماً، في مياه ساكنة تماماً. ثم داهمتها عواصف هوج قال بيجافيتا إنها أوشكت أن تقضي على القافلة ولكنها نجت من الهلاك بأعجوبة.

ولم يتمالك جوان دي كرتاجينا نفسه، فثار ثائره. وما دام ماجلان لا يريد الإصغاء إلى أية نصيحة، ولا يتقبل أي نقد، فيجب إذن أن يعلم الجميع في السفن إلى أي حد يحتقر جوان كرتاجينا ذلك الملاح الغبي! نعم إن سفينته «سان أنطونيو»

قد اقتربت في ذلك المساء كالمعتاد من السفينة «ترينيداد» لكي يقدم لماجلان تقريره ويتلقى أوامره، ولكن جوان دي كرتاجينا لم يظهر بنفسه على ظهر سفينته، بل أوفد نائبه بدلاً منه، وقد خاطب هذا الضابط القائد العام بهذه العبارة: «حياك الله يا سيدي الربان القائد».

وأدرك ماجلان مغزى ما خاطبه به الضابط الذي استبدل بعبارة «القائد العام» المتواضع عليها عبارة «الربان القائد».

وفهم المغامر البرتغالي اللبيب أن دي كرتاجينا يريد أن يعلن أمام بحارة السفن أنه لا يعد نفسه مرؤوساً لماجلان. وعلى هذا، فقد أرسل أمير البحر في الحال إلى جوان دي كرتاجينا يقول إنه يأمل أن توجه إليه في المستقبل التحية بالعبارات المتفق عليها.

ولم يتقبل جوان دي كرتاجينا هذا الأمر بالصمت، بل رد عليه ببرود قائلاً إنه يأسف لعدم استطاعته إجابة طلبه. وإذا كان قد حياه في هذه المرة بلسان أكبر ضباطه، فإنه في المرة القادمة سيحييه بلسان أصغر بحارته... ومرت ثلاثة أيام رفضت فيها السفينة «سان أنطونيو» تحية سفينة القيادة، معلنة للسفن الأخرى أن ربانها لا يخضع للقائد البرتغالي.

إذن فإن جوان دي كرتاجينا قد ألقى قفازه في وجه القائد البرتغالي علناً وعلى مرأى من الجميع، ولم ينسج له خيوط الدسائس في الخفاء بالصورة التي وردت في التقارير الرسمية واصفة دي كرتاجينا بالمكر والدهاء.

* * *

إن أخلاق الرجل تتجلى في الساعات العصيبة. والصفات التي تبقى في الأوقات العادية كامنة في الصدور تظهر فجأة وقت الخطر. وقد اعتاد ماجلان أن يواجه الحوادث بطريقة واحدة.

فهو يتصف بصمت وبرود عجيبين، وأشد الإهانات فظاعة لا تزيد في بريق عينيه، خلف حاجبيه الكثيفين، ولا تؤثر في أعصابه. بل إنه يظل محتفظاً بهدوئه. وذلك البرود المتناهي، في مثل هذه الظروف، يجعله قادراً على رؤية الأشياء بوضوح تام. وهو يجيد وضع الخطة التي يجب السير عليها في الوقت الذي يكون فيه سجين صمته، فهو لا يقدم أبداً على عمل مدفوعاً بالغضب، أو التسرع. ولكنه يصمت طويلاً، ثم ينفجر!

وقد لزم ماجلان الصمت في هذه المرة أيضاً. فظن الذين لا يعرفونه من الإسبانيين أنه لم يدرك مدى التحدي الذي وجهه إليه جوان دي كرتاجينا. ولكنه في الواقع كان يستعد للرد عليه. فهو يعلم أنه لا يسعه، في عرض البحر، أن يذهب إلى سفينة أكبر من سفينته وأتم تسليحاً منها، لعزل ربانها من منصبه، فصبراً إذن وليتظاهر بعدم الاكتراث!

وهكذا لزم ماجلان الصمت أمام الإهانة ورجاله يرونه كل يوم يروح ويجيء على ظهر السفينة ترينيداد، هادئاً، متظاهراً بالانصراف إلى مراقبة الأعمال اليومية الكثيرة.

إن السفينة سان أنطونيو لا تزال ممتنعة عن تحيته في المساء. ولكن البحارة يظنون أن هذا لا يؤثر فيه، بل إن الربابنة أدركوا، بشيء من الدهشة، أن ذلك الرجل الغامض يبدي فجأة ميلاً إلى المصالحة. وللمرة الأولى، لمناسبة خروج أحد البحارة على النظام، دعا أمير البحر الربابنة الأربعة للاجتماع به على ظهر سفينته.

وأعتقد الربابنة أن ماجلان قد ضاق ذرعاً بجو العداء الذي يعيش فيه، وأنه أدرك ـ بعد ظهور خطئه في اختيار الطريق الصحيح ـ أن الخير في استشارة الربابنة القدماء المجربين لا في إهمالهم وإطراح مشورتهم.

ولبى جوان دي كرتاجينا الدعوة. ولما كانت الفرصة قد سنحت ليخاطب ماجلان وجهاً لوجه، فقد أعاد الكرة وسأله مرة أخرى لماذا غير طريق السير. لكن ماجلان لم يرد على السؤال. ولاشك أنه قد رسم لنفسه خطة عزم على تنفيذها، وهي أن يثير بموقفه الجامد غضب جوان دي كرتاجينا. فإن هذا الربان، بوصفه أكبر موظفي التاج، يعتقد أن له الحق في أن يتكلم بحرية...

ويغلب على الظن أن حادثاً عنيفاً وقع بين الرجلين، وأن جوان دي كرتاجينا قد انزلق إلى ما يشبه رفض الطاعة. وكان ماجلان قد توقع مثل هذا التمرد، بل تمناه.

فالآن، أصبح في وسعه أن يضرب!

ولم يتردد... فقد استخدم حقه المطلق في معاقبة كل مذنب، فقبض على جوان دي كرتاجينا من صدره صائحاً: «أنت أسيري!» وأصدر في الحال أمره إلى رئيس الشرطة باعتقال الضابط المتمرد.

وشاهد الربابنة الآخرون ما حدث مذهولين، فلم يفوهوا بكلمة. ومع ذلك، فقد كانوا، منذ دقائق فقط، على وفاق تام مع جوان دي كرتاجينا. بل إنهم لا يزالون

حتى هذه اللحظة مؤيدين في السر لمواطنهم ضد القائد الأجنبي. ولكن سرعة الضربة، والشدة الجهنمية التي لجأ إليها ماجلان لاعتقال خصمه كأنه مجرم عادي، شلتا إرادة الربابنة، وعبثاً جعل جوان دي كرتاجينا يناشدهم أن ينجدوه، فلم يجرؤ منهم أحد على أن يخطو خطوة واحدة أو يرفع نظره إلى الرجل القصير، الذي خرج للمرة الأولى عن صمته، وأظهر هذه الشدة في المعاملة.

وتأهب رجال الشرطة لإخراج جوان دي كرتاجينا ، وفي هذه اللحظة فقط، التفت أحد الربابنة إلى ماجلان، ورجاه بعبارات رقيقة، ألا يضع السلاسل الحديدية في يدي نبيل إسباني، وعرض عليه أن يسلمه إلى ربان منهم يتعهد بشرفه أن يحتفظ به أسيراً. وقبل ماجلان الاقتراح، ووقع اختياره على لويس دي مندوسا لمراقبة الربان العاصي، على شرط أن يتعهد له بيمين يقسمها ، بأن يضعه دائماً تحت تصرف القائد العام.

وانتهى الحادث عند هذا الحد. وبعد مضي ساعة، كان الضابط الإسباني أنطونيو دي كوكا يتولى قيادة السفينة سان أنطونيو، خلفاً لجوان دي كرتاجينا. وفي المساء، أرسل تحيته المتفق عليها إلى «القائد العام» من ظهر سفينته. واستقر كل شيء واستأنفت القافلة سيرها بدون حادث آخر.

وفي ٢٩ نوفمبر، نادى الرقيب من أعلى مكمنه أن قد بدت في الأفق أرض البرازيل، ورأى البحارة ساحل برنامبوك. وفي ١٣ ديسمبر، دخلت السفن الخمس خليج ريو دي جانيرو بعد سفر استغرق أحد عشر أسبوعاً.

ولاشك أن ذلك الخليج الذي لم يكن في ذلك الوقت أقل جمالاً منه الآن بعد إنشاء المدينة الزاهرة - قد بدا لرجال السفن المنهكين كأنه الفردوس وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه اكتشف يوم عيد القديس «جانيرو» ولأن الذين اكتشفوه كانوا يعتقدون أن وراء الجزر القائمة في مدخله نهراً، أي «ريو» يصب في البحر[1]. ويقع خليج ريو دي جانيرو في نطاق الممتلكات المخصصة للبرتغال. ولو خضع ماجلان

---

(١) هناك اعتقاد خاطئ بأن اسم «ريو دي جانيرو» أطلق على الخليج ثم على المدينة عاصمة البرازيل لأن ذلك المكان اكتشف في شهر يناير وهو أول شهور السنة عند المسيحيين . والواقع أن اكتشاف ذلك الخليج كان في يوم ١٩ سبتمبر وهو عيد القديس «يناير» أو «جانفيير» وقد اتضح فيما بعد أن ليس هناك نهر ولكن اسم «ريو دي جانيرو» ظل يطلق على عاصمة البرازيل وخليجها . وكانت البرازيل مستعمرة برتغالية منذ القرن السادس عشر ثم استقلت في سنة ١٨٢٢ . (المترجم)

للتعليمات الصريحة التي تلقاها، لما كان له الحق في النزول إلى البر هناك. ولكن البرتغاليين لم يكونوا في ذلك الوقت قد انشأوا بعد مراكز تجارية ولا شيدوا حصوناً مجهزة بالمدافع. ففي الواقع، أن تلك البقاع كانت لا تزال مهملة وعلى الحياد. ولهذا، فإن السفن الإسبانية في وسعها أن تلقي مراسيها دون أن يزعجها أحد.

وما إن اقتربت السفن من الشاطئ، حتى خرج السكان مسرعين من أكواخهم وغاباتهم، واستقبلوا مطمئنين أولئك الأغراب الوافدين عليهم لابسين الدروع. غير أن بيجافيتا يقول فيما بعد إنه علم أن أولئك الأقوام من أكلة لحوم البشر، وإنهم يشوون عدوهم على النار بعد قتله ويلتهمون ألذ قطع من جسمه! إلا أنهم لم يظهروا العداء للرجال البيض القادمين، ولم يضطر الجنود قط إلى استعمال الحراب وقاذفات السهام.

وبعد ساعات من نزول الإسبانيين إلى اليابسة، بدأت حركة التبادل بينهم وبين السكان. وشعر بيجافيتا للمرة الأولى بأنه في جو يروقه، فبدأ يكتب مذكرات ضافية بعد أن اقتصر ما دونه في الأسابيع الأحد عشر الماضية على حكايات تتعلق بكلاب البحر والطيور الغريبة. ويبدو أنه لم يعلم باعتقال جوان دي كرتاجينا. أما الآن، فإن الريش الذي يكتب به لا يكفيه ليدون في مذكراته اليومية جميع الروائع التي تقع عليها أنظاره.

إنه لا يقول شيئاً في وصف المناظر الطبيعية ولا يسعنا أن نؤاخذه على هذا، لأن وصف الطبيعة أفاض فيه جان جاك روسو، بعد ذلك العهد بثلاثة قرون. فالأثمار التي تنتجها تلك البلاد تثير إعجابه قبل كل شيء: ثمر «الأناناس» الذي يشبه كوز الصنوبر ولكن طعمه لذيذ جداً. وثمر «باتات»[١] الذي يشبه الكستناء. وقصب السكر وغير ذلك من منتجات الأرض.

وهو لا يتمالك حماسته أمام الأسعار الزهيدة التي يبيع بها السكان منتجاتهم. فإنهم يعطون خمس دجاجات أو ستاً مقابل صنارة واحدة لصيد السمك، وأوزتين مقابل مشط واحد، وعشر ببغاوات نظير مرآة صغيرة وكمية من السمك تكفي لإطعام عشرة أشخاص عوضاً عن قفص واحد. أما الأجراس - ونحن نذكر أن نحو عشرين ألفاً منها قد وضعت في السفن - فإن جرساً واحداً يكفي للحصول على سلة

(١) «باتات» كلمة في لغة سكان أمريكا الأصليين لثمر نقل من أمريكا إلى أوروبا وأطلق عليه اسم «باتاتا» أو «تفاح الأرض» وهو البطاطس.

مملوءة بثمر الباتات اللذيذ. وحدث مرة لبيجافيتا أن أعطاهم ورقة «الملك» من ورق لعب قديمة. فأبدلوه بها خمس دجاجات، واعتقد البائعون أنهم خدعوه!

ومما يباع أيضاً بأسعار زهيدة جداً، الفتيات! وقد وصفهن بيجافيتا قائلاً إن شعورهن هي كل ما يرتدينه من ثياب. فمقابل سكين أو فأس يحصل الرجل على فتاتين أو ثلاث يصبحن ملك يمينه طول عمره!

وبينما كان بيجافيتا منصرفاً إلى تدوين مشاهداته، والبحارة إلى التهام الطعام وصيد السمك واللهو مع الفتيات، كان ماجلان من ناحيته يتأهب لاستئناف الرحيل. فهو لا يغضبه أن يلهو رجاله، ولكنه يحافظ بدقة على النظام. وقد عمل بالقسم الذي ارتبط به تجاه ملك إسبانيا، فمنع الرقيق على طول الساحل البرازيلي، كما حرم أعمال العنف، كيلا يكون للبرتغاليين سبيل للشكوى.

وقد نجح ماجلان بهذا السلوك النبيل نجاحاً خاصاً، فإنه حين اتضح لسكان البلاد الأصليين أن الأجانب لا يضمرون لهم سوءاً، وفدوا جماعات على ماجلان ورفاقه يختلطون بهم في اطمئنان تام. وفي أواخر ديسمبر، أي بعد ثلاثة عشر يوماً من النزول بالساحل، أقلعت السفن الإسبانية مبتعدة عن الخليج الذي ترك في نفوس رجالها أطيب الذكريات.

وفي وسع ماجلان الآن أن يواصل رحلته ناعماً براحة ضمير لا ينعم بها غيره من رواد البحر الفاتحين. نعم، إنه لم يفتح بلاداً جديدة باسم شارلكان، ولكنه لم يرتكب عنفاً ولم ينتزع أحداً من بيته، فقد نزل على الساحل بسلام، ورحل عنه بسلام!

* * *

غادر البحارة بشيء من الحسرة خليج ريو دي جانيرو الساحر، وها هم الآن يمرون تجاه شواطئ البرازيل فلا يسمح لهم بالنزول إليها. ولكن ماجلان أصبح في حالة تمنعه من الراحة مرة أخرى. فهو مدفوع إلى الأمام برغبة ملحة، نحو الممر الذي يعتقد، بناء على ما جاء في خريطة مرتان بيهايم وتقارير البرتغاليين المغامرين، أنه موجود في مكان معين. وإذا صحت روايات الملاحين البرتغاليين، والمقاييس التي ذكرها مرتان بيهايم في خريطته، فإن ذلك الممر لابد أن يكون موجوداً خلف رأس سانتا ماريا. وهذا ما يحمل ماجلان على الدأب في السير.

وأخيراً، في اليوم العاشر من شهر يناير، وصلت السفن إلى رأس سانتا ماريا، وأخذت الأعين من بعيد قمة جبل صغير تشرف على سهل لا نهاية له. وأطلق ماجلان

على ذلك المكان اسم «مونتيفيدي» وتقوم اليوم هناك مدينة «مونتيفيديو»[١]
ولجأت السفن، لاتقاء العاصفة، إلى الخليج الواسع الممتد مسافات لا ترى نهايتها نحو الغرب.

ولم يكن ذلك الخليج غير مصب نهر «ريو دي لابلاتا» وماجلان يجهل ذلك. ولكنه يتبين بسرور لم يقو على كتمانه، أن المكان الذي تشير إليه التقارير يمتد نحو الغرب، أي إلى الجهة التي توجد فيها جزر ملوك المنتجة للتوابل. ويبدو له أن كل ما يراه أمامه يتفق مع الوصف الذي سمعه في لشبونة. فلابد إذن أن يكون ذلك الخليج هو الممر الذي قيل إن البرتغاليين حاولوا، قبل ذلك الوقت بعشرين سنة، أن يجتازوه نحو الغرب. ويقول بيجافيتا إن الجميع كانوا يعتقدون أنهم قد وفقوا إلى اكتشاف الممر المنشود.

ولا غرابة أن يكون ماجلان نفسه قد اعتقد، منذ اليوم الأول، وأمام تلك الصفحة الهائلة من المياه، أنه عثر على الممر الذي يبحث عنه. وما كادت العاصفة التي داهمت العمارة تهدأ، حتى عمد ماجلان إلى توزيع أسطوله، فأرسل السفن الثلاث الصغيرة إلى القناة التي اعتقد أنها تؤدي إلى الغرب، والتي لم تكن غير نهر بلاتا وقاد بنفسه السفينتين الأخريين الكبيرتين، واتجه بهما جنوباً خلال المصب الواسع، ليتحقق من وجود الممر في تلك الناحية.

لكن بحثه لم يسفر عن شيء. وبعد خمسة عشر يوماً، رأى قلوع السفن الثلاث وهي عائدة إلى المكان المحدد للقاء. وكانت خيبة أمل مرة! فإن السفن لا ترفع على صاريتها العلم المبشر بالخير. والربابنة يحملون معهم خبراً يبعث اليأس، فإن تلك المياه التي ظنوها بادئ الأمر القناة المنشودة، ليست في الواقع غير نهر تندفع مياهه بقوة غير مألوفة. وكان المغامر جوان دي سوليس قد بحث في ذلك المكان عن الطريق إلى ملقة، ولكنه لقي حتفه. فأطلق اسمه مؤقتاً على ذلك النهر فسمي «ريو دي سوليس» ثم أبدل هذا الاسم فيما بعد، فسمي النهر «ريو دي لابلاتا»[٢].

إذن، فعلى ماجلان أن يضغط أعصابه. وينبغي ألا يفطن أحد من رجاله إلى

---

(١) عاصمة جمهورية أورغواي بأمريكا الجنوبية.

(٢) ريو دي لابلاتا اسم مصب نهرين: نهر «أوروغواي» ونهر «بارانا» وهو أوسع مصبات الأنهار في العالم، إذ يبلغ عرضه عند منفذه ٢٢٠ كيلومتراً. وتقع على ساحله مدينة مونتيفيديو عاصمة جمهورية أوروغواي، ومدينة بونس أيرس عاصمة جمهورية الأرجنتين.

أي حد زعزعت خيبة الأمل ثقته بنفسه. ومنذ هذه اللحظة، تأكد ماجلان من شيء واحد، وهو أن خريطة مرتان بيهايم خاطئة، وتقارير البرتغاليين الخاصة باكتشاف ممر مزعوم عند الدرجة ٤٠ من خط العرض غير صحيحة. وجميع معلوماته، وجميع تقديرات فاليرو، وجميع توكيداته، وجميع ما وعد به الإمبراطور ومستشاريه، كل ذلك قائم على خطأ! وإذا كان ذلك الممر موجوداً ـ وماجلان يشك الآن في وجوده بعد أن كان يعتقد ذلك ـ فلابد أن يكون واقعاً في مكان آخر، بعيداً نحو الجنوب.

لكن مواصلة السير نحو الجنوب ليس معناها الذهاب إلى مناطق حارة، بل بالعكس. فقد تجاوزت السفن من زمن بعيد خط الاستواء، فمعنى السير إلى الجنوب إذن، الاقتراب من الأصقاع القطبية. وشهرا فبراير ومارس لا يعنيان هنا نهاية الشتاء بل بدايته. فإذا لم يتم بسرعة اكتشاف الممر في بحر الجنوب، فالفصل الملائم يكون قد انقضى، وستجد السفن نفسها أمام أمرين لا ثالث لهما: العودة إلى مناطق أكثر اعتدالاً، أو قضاء فصل الشتاء في هذا المكان!

* * *

منذ اليوم الذي عادت فيه السفن التي أرسلت للاستكشاف، حاملة النبأ المخيب للآمال، لابد أن تكون الأفكار المزعجة قد انتابت نفس ماجلان، ولابد أن تكون الدنيا قد اسودت في عينيه. فهو يرى أمامه الساحل قاتماً، عارياً، قاحلاً يوماً بعد يوم. ويرى السماء تزداد عبوساً. فقد انطفأ النور الأبيض الساطع من الجنوب. والغيوم الكالحة تتلبد بها السماء الزرقاء. واختفت الغابات الكثيفة التي كانت تداعب السفن المقتربة من الساحل بنسماتها المنعشة. نعم لقد اختفى كل ذلك دون أمل في رجعته: مناظر البرازيل اللطيفة، وأشجاره المثقلة بالأثمار، ونخله ذو الأغصان المتمايلة، وحيواناته بأشكالها المنوعة، وسكانه الكرماء...

إن العين لا تقع الآن إلا على الطيور البحرية والحيوانات المائية، ولا ترى على الشاطئ أثراً لكائن حي، على مدى البصر، كأن كل حياة انطفأت في تلك الفيافي المجهولة.

حدث مرة واحدة أن وقع نظر البحارة على رجال فارعين متوحشين، يغطون أجسامهم بجلود الحيوانات، كما يفعل الاسكيمو. ولكن لا شيء يغريهم، لا الأجراس ولا القلانس الملونة التي يلوح لهم بها البحارة. فإنهم كالحو الوجوه عابسون، يبتعدون هاربين كلما حاول أحد الاقتراب منهم. وعبثاً حاول البحارة العثور على أثر للمساكن.

الرحلة تزداد عناء يوماً بعد يوم، وسرعة السفن تخف يوماً عن يوم. وماجلان يحتفظ بخط السير على مقربة من الساحل لا يحيد عنه. وكل خليج مهما يكن صغيراً، وكل مرفأ مهما يكن تافهاً، يدرس درساً وافياً وتقاس أعماق المياه فيه.

نعم، إنه لا يعتمد الآن على تلك الخريطة الملعونة التي دفعته إلى القيام بهذه الرحلة ثم خانته! ولكن، من يدري؟ فقد تحدث المعجزة، وقد يظهر فجأة، في مكان لا يفكر فيه أحد، ذلك الممر الذي سيتيح له دخول بحر الجنوب قبل أن يبدأ فصل الشتاء. وأصبح ماجلان يتعلق بأهداب أمل أخير، وهو أن تكون الخرائط وتقارير البرتغاليين قد أخطأت فقط في تحديد خط العرض ودرجته، وأن تكون الطريق المنشودة واقعة في مكان أبعد من ذلك إلى الجنوب.

ولما اقتربت السفن من جديد، في ٢٤ فبراير، من خليج كبير آخر، وهو خليج سان ماتياس، انتعشت الآمال مرة أخرى، كما تنتعش النار بنفحة النسيم. فأسرع ماجلان بإرسال السفن الصغيرة، لتبحث عما إذا كان الممر نحو جزر ملوك يوجد في ذلك المكان. وجاء الرد مرة أخرى: لا شيء! ومرة أخرى، وجد ماجلان نفسه في خليج مغلق وعادت السفن بخيبة أمل للمرة الثانية. ولم يسفر البحث عن نتيجة أفضل من هذه في خليجين آخرين: خليج «باهيا دي لوس باتوس» وخليج «باهيا دي لوس شراباجوس» فالرجال الذين نزلوا إلى البر في الخليجين لم يحملوا معهم غير جثث الحيوانات البحرية التي اصطادوها، على أنهم عادوا يشكون تصلب أجسامهم من شدة البرد.

واستؤنف السفر، على طول الساحل، إلى بعيد، تحت أشعة شمس كئيبة. وازدادت الوحشة فظاعة. وجعلت الأيام تقصر والليالي تطول. والسفن الآن لا تسير في جو رقيق، مدفوعة إلى الأمام بنسيم خفيف، بل إن زوابع عنيفة تعبث بالقلوع، والثلج والبرد يتساقطان عليها بشدة، وقد استغرق اجتياز المسافة القصيرة التي تفصل بين ريو دي لابلاتا ومرفأ سان جوليان شهرين كاملين، فالسفن تكافح الزوابع كل يوم، والرياح تهز الصواري والقلوع بعنف، والممر المنشود لا يظهر له أثر.

وهكذا دفع البحارة غالياً ثمن الأسابيع التي قضوها في راحة ونعيم. وبينما كانت السفن تواصل فحص جميع الخلجان، كان الشتاء قد أقبل! وها هو ذا اليوم ماثل أمام رجال الحملة، يسد في وجوههم الطريق. وقد مرت ستة أشهر منذ أقلعت السفن من أشبيلية، وماجلان لم يتقدم خطوة واحدة عما كان عليه في اليوم الأول!

وبدأ البحارة يبدون قلقهم شيئاً فشيئاً. فإنهم يشعرون بأن هناك شيئاً غير عادي. أما قيل لهم في أشبيلية وقت الرحيل، أنهم ذاهبون إلى جزر التوابل، في المناطق الجنوبية النيرة، وفي بلاد تحفل بالنعيم؟ أما وصف لهم العبد هنريك وطنه فقال إنه أرض الخيرات، يقطف فيها الإنسان ما يشاء من التوابل الثمينة؟ أما قطعت لهم الوعود بأنهم سيصبحون أغنياء ويعودون بسرعة إلى وطنهم؟ وبدلاً من ذلك كله، ساقهم هذا الرجل العابس الصامت إلى أصقاع يزداد فيها البرد وتشتد الوحشة يوماً عن يوم.

إن أشعة الشمس الضعيفة تخترق السحب، ولكن السماء تلبث غالباً ملبدة بالغيوم، والجو ينبئ بسقوط الثلج، والرياح تصفعهم بعنف على وجوههم وتتسرب داخل ثيابهم فتمزقها. وأيديهم تتجمد من البرد، كلما لمسوا الحبال المكسوة بالجليد، وأنفاسهم تتحول إلى بخار...

ثم، يا لها من عزلة ويا لها من كآبة! فإن أكلة لحوم البشر أنفسهم قد فروا أمام البرد. وعندما ينزل الرجال إلى البر، لا يجدون حيواناً ولا نباتاً... لا شيء غير الصدف وحيوانات البحر، التي تؤثر الحياة في المياه الباردة، على الحياة في أرض تكتسحها العواصف بلا انقطاع... فإلى أين ساقهم هذا البرتغالي؟ وإلى أين يسوقهم؟ أهو ذاهب بهم إلى أرض أيسلندا أم إلى القطب الجنوبي؟

عبثاً حاول ماجلان تهدئة الخواطر، فإنه لا يجمل بالبحارة أن يتولاهم الذعر بسبب البرد فيفقدوا شجاعتهم! فسواحل نرويج وأيسلندا تمتد في خط عرض أبعد من هذا المكان بكثير، ومع ذلك فالملاحة في تلك الأصقاع ليست أصعب من الملاحة على سواحل إسبانيا ذاتها. فعلى الرجال إذن أن يصبروا أياماً أخرى. وإذا لزم الأمر، ففي وسع القافلة قضاء الشتاء في مكان دافئ، وانتظار طقس ملائم لاستئناف السفر.

لكن الكلمات المعسولة لم تعد تهدئ روع البحارة... إن السفر في هذه الأصقاع لا يمكن أن يكون ملكهم قد فكر فيه. وإذا كان قائدهم يحدثهم عن النرويج وأيسلندا، فإن وجه الشبه بعيد بينهما وبين هذه السواحل، فالناس هناك قد اعتادوا البرد منذ نعومة أظفارهم، وهم واثقون من العودة إلى بيوتهم بعد ثمانية أيام أو خمسة عشر يوماً. أما هؤلاء البحارة فقد جيء بهم إلى مناطق قفراء، لم يصل إليها مسيحي من قبل، بل إن الوثنيين أنفسهم وأكلة لحوم البشر لا يطيقون سكناها، وحتى الدببة والذئاب قد نأت عنها، فلأي هدف يرتادون هذه المناطق؟ ولماذا يسيرون

في هذه الطريق ما دامت هناك طريق الهند الشرقية التي تؤدي براحة واطمئنان إلى جزر التوابل، بدون أن يضطر البحارة إلى اجتياز سهول الجليد وهذه السواحل القاتلة؟

بهذه الاعتراضات رد البحارة بصراحة على توسلات قائدهم. أما فيما بينهم، وفي أثناء اجتماعهم داخل السفن، فإنهم بلا شك يعبرون عن أفكارهم بلهجة أشد عنفاً من هذه...

وعاودتهم الشكوك التي راجت عنها الإشاعات في أشبيلية من قبل: ألا يلعب هذا البرتغالي اللعين لعبة ذات وجهين؟ ألا يرمي إلى استرضاء مليكه بقيادته خمس سفن جميلة من سفن إسبانيا مع رجالها إلى الهلاك؟

وقد كان الربابنة الإسبانيون، ينظرون بعين الارتياح إلى تفاقم السخط بين البحارة. ولكنهم لا يقولون شيئاً، ويتجنبون التحدث مع أمير البحر. بل إنهم يبالغون في صمتهم. وقد يكون ذلك الصمت أكثر خطراً من ثرثرة البحارة. وقد أدركوا بما لهم من خبرة في شؤون الملاحة، أن ماجلان قد أصيب بخيبة أمل شديدة، وأنه لم يعد واثقاً تماماً من «سره» الذي يكتمه. فلو كان يعرف مكان الممر الذي يبحث عنه، لما جعلهم يتوغلون في مصب نهر بلاتا أسبوعين. ثم، لماذا يضيع وقتاً ثميناً ويقضي أيام عديدة في الكشف عن كل خليج صغير في الطريق؟

إن ماجلان، بادعائه معرفة الطريق إلى الممر المنشود، قد خدع الملك، أو خدع نفسه، إذ إن هناك شيئاً قد أصبح الآن واضحاً: إن ماجلان يبحث عن طريق لا يعرفها. ولهذا، فإن الربابنة يرقبونه بفرح ماكر لا يحاولون إخفاءه، كلما وقف أمام فرجة على الساحل يكشفها بمنظاره، ويتمنون لو واصل السير بالسفن في الجو البارد وعلى صفحة المحيط اللانهائي! فإنهم ليسوا في حاجة بعد الآن إلى مقاومته أو شكواه. فعما قليل تأزف الساعة التي يضطر فيها اضطراراً إلى الاعتراف بخطئه فيقول: «لم أعد أعرف طريقي!» وحينئذ، يمكن إرغام ذلك الرجل المتكبر على أن يحني رأسه!

* * *

ولا يمكن أن يتصور العقل حالة نفسية أفظع من حالة ماجلان خلال تلك الأسابيع. وحتى لو كان الممر موجوداً في مكان ما إلى الجنوب، كما يعتقد هو الآن، فإن فرصة بلوغه هذا العام قد فاتت وأصبح الشتاء حائلاً دونها. ولو اكتشفه بهذه

السفن وبحارتها المنهكين، لما تيسر له اجتيازه قبل الربيع. وقد انقضت تسعة أشهر على بدء رحلته، ولكنه لم يصل بعد إلى جزر التوابل كما وعد، وما زالت سفائنه ضالة في المحيط الشاسع، تهاجمها الزوابع وتكتنفها الأخطار.

فالحكمة تقضي إذن بإفشاء الحق، ودعوة ربابنة السفن إلى الاجتماع به، والتصريح بأنه خدع بالخرائط وروايات الملاحين البرتغاليين، وأن الأجدى أن تعود السفن أدراجها في محاذاة ساحل البرازيل لقضاء فصل الشتاء في مكان دافئ. فإن هذا يتيح للبحارة فرصة لاستعادة قواهم، وترميم السفن، لاستئناف السفر جنوباً عندما يحل الربيع.

هذا ما كان يقضي به المنطق والشعور الإنساني. ولكن ماجلان قد تورط إلى حد لم يعد يسمح له بالتراجع. فقد طالما صرح مؤكداً أنه يعرف طريقاً أقصر من الطريق المألوفة للوصول إلى جزر ملوك. وعاقب بصرامة أولئك الذين عبروا عن شكهم في صحة ما يدعي. وأهان الضباط الإسبانيين، وعزل أكبر موظف من موظفي الملك في عمارته وعامله معاملة المجرم الأثيم. ولا شيء يبرر ذلك كله إلا إحراز نصر سريع. فإن الربابنة والبحارة لن يتركوا زمام القيادة بيده دقيقة واحدة، لو اعترف لهم بأنه لم يعد واثقاً من قضيته بقدر ما كان واثقاً منها يوم الرحيل. وسيرفض أصغر صبيان السفن تحيته: فلا يمكن لماجلان أن يتراجع إلى الوراء. ومنذ اللحظة التي سيصدر فيها أمره بالعودة إلى البرازيل، لن يبقى رئيس ضباطه، بل يصبح أسيرهم.

كل هذه الاعتبارات جعلت ماجلان يقدم على قرار يائس. وكما أن كورتيز، في السنة ذاتها، قد أحرق سفنه ليحرم جنوده من كل وسيلة للتقهقر[1]، فإن ماجلان قرر من ناحيته إبقاء سفنه ورجاله في مكان قصي منعزل، بحيث لا يستطيعون، لو أرادوا، أن يرغموه على الرجوع على أعقابه. فإن وجد الممر في الربيع سارت الأمور على ما يرام. وإن لم يجده، وقعت الكارثة!... فليس إذن أمام ماجلان حل وسط. والعناد وحده يحفظ له القيادة، والجرأة تنقذه!

* * *

داهمت العاصفة سفن القافلة بشدة بالغة. فهي تسير الآن ببطء وعناء. وقد استغرق اجتياز مسافة لا تزيد على اثنتي عشرة درجة إلى الجنوب نحو شهرين.

(١) لقد كرر الإسبانيون في تاريخهم أكثر من مرة ما صنعه طارق بن زياد ، الذي أحرق مراكبه بعد نزول رجاله إلى بر الأندلس ، كما هو معروف .

وأخيراً، في ٣١ مارس، بلغت السفن خليجاً جديداً. فهل هو الممر المرتقب؟ كلا!...
إنه خليج مغلق. ومع ذلك، فإن ماجلان يصدر أمره بدخول السفن فيه. ولما تبين أن الخليج تتوافر فيه المياه العذبة وتكثر الأسماك، طلب إلى السفن أن تلقي مراسيها. وبلغت دهشة الربابنة والبحارة حد الذعر، عندما علموا أن أمير البحر قد اعتزم - دون مشورتهم - قضاء الشتاء في خليج سان جوليان الصغير المجهول، عند خط العرض ٤٩، في بقعة قفراء جرداء، لم تطأها من قبل قدم أوروبي على الإطلاق.

العصيان

٢ أبريل ١٥٢٠ - ٧ أبريل ١٥٢٠

لابد أن تكون الخصومات قد تفاقمت خلال الإقامة في خليج سان جوليان، أكثر من تفاقمها في عرض البحر، بالرغم من ذلك أقدم ماجلان على تدبير من شأنه أن يزيد الامتعاض تفاقماً. فهو يعرف أن شهوراً عديدة سوف تنقضي قبل أن تصل السفن إلى بقاع معتدلة خصبة ـ على افتراض أنها ستصل إليها ـ ولذلك فقد أصدر أمره فوراً بتخفيض الجرايات. وأنها لجرأة يصعب تصديقها تلك التي جعلته يعلن هنا، في هذا الركن البعيد من العالم، ومنذ اليوم الأول، لبحارة يضمرون له العداء، إن جرايات الخبز المجفف والنبيذ سوف تخفض منذ اليوم.

وفي الواقع، كان هذا القرار الجريء هو الذي أنقذ القافلة، ولو لم يتصرف ماجلان على هذا النحو، لما تمكنت السفن من إتمام تلك الرحلة العجيبة، غير أن البحارة، الذين لا يأبهون بمشروع لا يعرفون عنه شيئاً، لم يظهروا أي استعداد لقبول ذلك التدبير القاسي. فإن الغريزة تنبئهم ـ وهذا أمر طبيعي ـ بأنه حتى لو قدر لقائدهم أن يكتسب من هذه الرحلة مجداً خالداً، فإن ثلاثة أرباعهم على الأقل سيدفعون حياتهم ثمناً لذلك النصر. ولهذا فإنهم يتهامسون قائلين: إذا لم تكن المواد الغذائية كافية، فلنعد إذن من حيث جئنا!

ثم إنهم قد توغلوا جنوباً إلى مسافة لم تبلغها من قبل سفينة أوروبية. ولن يجرؤ أحد في المستقبل على لومهم مدعياً بأنهم لم يؤدوا واجبهم كاملاً. فقد مات بعضهم من البرد، ولم يكن الغرض من استئجارهم الوصول إلى المحيط المتجمد، بل إلى جزر ملوك، جزر التوابل.

وقد ادعى بعض المؤرخين الإسبانيين أن ماجلان رد على هذه الاعتراضات بخطاب لا نراه متفقاً مع طبيعته الجافة، وهو خطاب يشبه كتابات بلوترخوس وتوسيديدس فلا يسعنا أن نصدق ما جاء فيه. فإن أولئك المؤرخين يجعلونه يخاطب البحارة قائلاً لهم إنه ليدهشه أن يبدي رجال إسبانيون مثل هذا الضعف ناسين أنهم يقومون بهذه الرحلة من أجل ملكهم ووطنهم. وأنه كان يظن، عندما عهد إليه بالقيادة، أنه سيجد فيهم روح الشجاعة التي طالما تحلت بها الأمة الإسبانية. أما هو، فإنه يؤثر الموت على العودة ملطخاً بالعار. وبقدر متاعبهم تكون المكافأة التي ينالونها من الملك...

ولكن الخطب المنمقة لا تهدئ روع رجل جائع. ولم تنقذ ماجلان بلاغته في تلك الساعة العصيبة. وإنما أنقذه قراره الجريء، ورفضه التسامح. وقد أثار مقاومة البحارة بادئ الأمر متعمداً، ليتسنى له القضاء عليها بيد من حديد. وهو يرى أنه خير له أن يبدأ العراك فوراً، من أن يؤجله إلى ما شاء الله، وخير له أن يتقدم لمواجهة العدو من أن ينتظر هجومه.

* * *

إن ماجلان لا يشك في أن الخلاف سينشب قريباً. ففي الأسابيع الأخيرة تفاقم التوتر بين الربابنة وبينه بصورة شديدة الخطر، ولابد أن يؤدي ذلك الصمت الذي يلزمه الطرفان، وذلك الجفاء العدائي، وتلك الرقابة المتبادلة، إلى انفجار يقع ذات يوم!

ويجب الاعتراف بأن مسؤولية تلك الحالة تقع على ماجلان أكثر مما تقع على الربابنة الإسبانيين. وليس أهون على المؤرخين من إظهار هؤلاء الربابنة في مظهر جماعة من الخونة أعداء العبقرية الدائمين. ففي تلك الساعة العصيبة كان يحق لهم، بل كان يجب عليهم أن يعلموا نوايا أمير البحر، لأن المسألة لم تكن متعلقة بحياتهم فقط، بل بحياة الرجال الذين تحت إمرتهم أيضاً، وإذا كان الملك شارلكان قد عين جوان دي كرتاجينا، ولويس دي مندوسا، وأنطونيو دي كوكا، مراقبين في السفن، فقد فرض عليهم، لقاء اللقب والمرتب، طائفة من المسؤوليات تقضي عليهم بالسهر على أملاك الإمبراطور وهي هنا سفن القافلة الخمس، فإذا تعرضت للخطر، دافعوا عنها.

وقد أصبحت السفن في خطر، بل خطر عظيم. فإن تسعة أشهر قد انقضت، وماجلان لم يعثر بعد على الممر الذي ادعى أنه يعرفه، ولم يصل إلى جزر ملوك. ولا

ضير على موظفي التاج إذا هم أقدموا، أمام حيرته البينة، على مطالبته بأن يرفع على الأقل طرف النقاب الذي يخفي «سره العظيم» وأن يثبت أنه يتصرف مع الملك تصرفاً شريفاً، بأن يكشف أوراقه أمام ضباط التاج. وليس هناك دليل يسمح لنا أن نقول إن الربابنة قد فكروا في العصيان منذ بداية الرحلة أو حاولوا نزع القيادة من أمير البحر، ولكنهم طلبوا إليه فقط أن يضع حداً للغموض وأن يجالسهم على منضدة واحدة، ليتناقشوا في سير الحملة ومصيرهم.

ولكن ماجلان المسكين مضطر إلى إخفاء خطته ما دام غير واثق من أنه قابض على جميع عوامل الفوز. فليس يسعه أن يضع أمام الربابنة خريطة مرتان بيهايم، لأن فيها إشارة خاطئة بأن الممر موجود عند خط العرض ٤٠. وليس في وسعه أيضاً - بعد أن عزل جوان دي كرتاجينا[1]، أن يقول لهم: «لقد خدعت بتقارير خاطئة، وخدعتكم!» وليس في وسعه أن يدعهم يسألونه أين يوجد الممر لأنه هو نفسه لا يعرف ذلك. فينبغي له إذن أن يظل كالأصم الأبكم، وأن يعض على شفتيه، ويعد قبضة يده للضرب إذا دنا المتطفلون منه أكثر مما يحق لهم!

وهكذا بات مراقبو الملك في السفن الخمس يلحون على ماجلان أن يشرح لهم ماذا ينوي أن يصنع بالسفن الخمس وبحارتها الذين وضعهم الملك أمانة بين يديه. وماجلان، الذي لا يستطيع أن يشرح ما دام لم يبلغ بعد الممر المنشود، مصمم ألا يجعلهم يرغمونه على الإفصاح كيلا يفقد سمعته وسلطته.

وهكذا، فإن الحق يبدو واضحاً من ناحية الضباط، والارتباك من ناحية ماجلان. وإذا كانوا يلحون على أمير البحر أن يفضي إليهم بما يهدئ نفوسهم، فليس ذلك تطفلاً منهم وإنما هو فرض يؤدونه. وينبغي أن يقال أيضاً - وفي هذا ما يشرفهم - أنهم لم يسلكوا مع ماجلان سلوكاً ماكراً، بل أفهموه - مرة أخيرة - أن صبرهم نفد.

وظن الرجل أنه يستطيع تهدئة خواطر الربابنة بمظهر من مظاهر المجاملة، بعد أن أثار امتعاضهم بالأوامر المتتابعة التي أصدرها بدون استشارتهم، فدعاهم رسمياً إلى سماع صلاة القداس معه يوم عيد الفصح، وتناول الطعام على مائدته في سفينة

---

(١) جوان دي كرتاجينا من أسرة إسبانية نبيلة تنتمي إلى مدينة كرتاجينا، وهي «قرطاجنة» أي «قرطاجنة الصغيرة» الواقعة على ساحل البحر المتوسط بإسبانيا، والتي أنشأها القرطاجيون سنة ٢٢٣ قبل الميلاد وأطلقوا عليها اسم مدينتهم مصغراً. وفي جمهورية كولومبيا بأمريكا الجنوبية مدينة تدعى أيضاً «قرطاجنة» أنشأها الإسبانيون.

القيادة. ولكن الربابنة الإسبانيين لا يريدون بيع رضاهم بهذه السهولة. وما دام السيد النبيل فرناو دي ماجلانس - الذي لم يحصل على لقب «فارس سنتياغو» الإسباني[1] إلا بالتبجح الفارغ - لم يرهم أهلاً للتحدث معه في نواياه، خلال تسعة أشهر كاملة، فإنهم يشكرونه الآن بكل تأدب على تفضله بدعوتهم لتناول الغداء! بل إنهم لا يشكرونه وإنما يهملون الرد على دعوته. وقد بقيت مقاعدهم على المائدة خالية، وأطباقهم فارغة، ورأى ماجلان نفسه مضطراً إلى الاكتفاء بمدعو واحد، هو قريبه ألفارو دي مسكيتا، الذي رفعه إلى رتبة ربان.

ويغلب على الظن أن غداء الفصح هذا لم يكن على هواه. فإن الربابنة الإسبانيين قد أعلنوا ماجلان، بمظهر الاحتقار المشترك هذا، أنهم يخاصمونه. وقد تحدوه جهاراً، وقالوا له: «لقد توتر الحبل أكثر مما يجب. فكن على حذر، أو اسلك مسلكاً آخر!».

وقد فهم ماجلان الإنذار. ولكن لا شي يمكن أن يعكر هدوء ذلك الرجل الفولاذي الأعصاب. فقد تناول الغداء بسكون تام مع مسكيتا، متظاهراً بأنه لا يبالي، ثم صعد هادئاً إلى ظهر سفينته حيث أصدر أوامره كالمعتاد، ولما أقبل الليل استلقى بكل اطمئنان على فراشه.

وأطفئت جميع الأنوار، وها هي السفن الخمس جاثمة، مرتاحة كأنها حيوانات ضخمة نائمة في ظلال الخليج. والظلام حالك في هذه الليلة الباردة من ليالي الشتاء. بحيث يصعب على العين أن ترى من كل سفينة خيال السفينة الأخرى. فلم ير أحد شيئاً ولم يسمع صوتاً، عندما ابتعد زورق، في منتصف الليل، من إحدى تلك السفن الخمس واتجه نحو السفينة «سان أنطونيو». ولكن هل يتصور أحد أن هذا الزورق يحمل الربابنة الثلاثة، جوان دي كرتاجينا، وجسبار كويسادا، وأنطوني دي كوكا؟

إن الخطة التي رسموها خطة حكيمة جريئة. وهم يدركون أنهم إذا راموا فرض إرادتهم على خصم عنيد كماجلان، فإنه يجب عليهم أن يكونوا أشد منه بأساً وعناداً. ثم، أليس الإمبراطور نفسه هو الذي أراد هذا؟ فإن سفينة واحدة، عند الرحيل، وضعت تحت قيادة ربان برتغالي، وهي سفينة ماجلان. أما السفن الأربع الأخرى فقد وضعت تحت قيادة ربابنة إسبانيين.

---

(١) من ألقاب الشرف عند الإسبانيين في العهد الملكي . نسبة إلى مدينة سنتياغو وهي مدينة جوان دي كومبوستيل ، حيث توجد كنيسة يحج إليها المسيحيون في أوروبا .

وهذا النظام الذي أراده الإمبراطور قد عدله ماجلان من تلقاء نفسه، بعزل جوان دي كرتاجينا أولاً، ثم بعزل أنطونيو دي كوكا من قيادة السفينة سان أنطونيو، وتعيين ابن خاله مسكيتا قائداً لها. ومنذ أقدم ماجلان على هذا العمل الجريء، أصبح من الناحية الحربية مسيطراً على العمارة كلها، إذ أن سراو، قائد السفينة «سنتياغو» وهي أصغر السفن الخمس، منضم إليه. فللقضاء على هذا التفوق في القوى، الذي يتمتع به ماجلان الآن، ولكي تنفذ إرادة الإمبراطور، لا توجد غير وسيلة واحدة: وهي الاستيلاء على السفينة «سان أنطونيو» وإبعاد مسكيتا الذي أسندت له قيادتها بدون حق. ولو تم ذلك، لأصبح الإسبانيون من جديد ثلاثة ضد ماجلان وحده، ولصار في مقدورهم أن يمنعوه من مغادرة الخليج، إلا إذا أفضى إليهم بالإيضاحات التي يطلبونها.

لقد وضعت الخطة بدقة، ونفذت أيضاً بدقة. فقد اقترب الزورق يحمل ثلاثين رجلاً مسلحاً، من السفينة سان أنطونيو حيث الجميع يغطون في نومهم، وحيث لا يسهر أحد للحراسة. وصعد جميع من في الزورق إلى ظهر السفينة مستعينين بسلالم من الحبال، وفي مقدمتهم جوان دي كرتاجينا وأنطونيو دي كوكا. ولما كان قد سبق للاثنين أن توليا القيادة في هذه السفينة، فإنهما يعرفان الطريق المؤدية إلى حجرة الربان. وقبل أن يتسنى لألفارو دي مسكيتا الخروج من سريره، كان الرجال المسلحون قد أحاطوا به، وكبلوه بالسلاسل، وحملوه إلى حجرة الكاتب.

وفي هذه اللحظة، ظهر بعض البحارة الذين استيقظوا على الضجة. وشعر أحدهم وهو الرئيس جوان دي ايلورياجا، أن في الأمر خيانة، فخاطب كويسادا بلهجة عنيفة وسأله ماذا يصنع في الليل على ظهر هذه السفينة، وكان جواب كويسادا ست طعنات من خنجره، فسقط ايلورياجا يتخبط بدمه. وقبض على جميع البرتغاليين وكبلوا بالحديد. وهكذا تم التخلص من أشد أنصار ماجلان خطراً. وأراد كويسادا أن يستميل بقية البحارة ففتح مخزن المؤن ووزع على كل بحار وجبة وافرة من الخبز المجفف والنبيذ. وإذا ضربنا صفحاً عن حادثة القتل بالخنجر، التي حولت هذا السطو إلى عصيان دموي، فإن كل شيء قد تم حسب تقدير العصاة. ففي وسع جوان دي كرتاجينا، وكويسادا، وكوكا، أن يعودوا الآن إلى سفنهم ليعدوها للقتال. وقد عهدوا في أثناء ذلك بقيادة السفينة «سان أنطونيو» إلى رجل يظهر اسمه هنا للمرة الأولى: جوان سباستيان دلكانو. وهذا الرجل، الذي وقع الاختيار عليه ليمنع ماجلان

من تحقيق مشروعه، هو نفسه الرجل الذي سيختاره القدر لإنجاز العمل الذي بدأه قائده الأعلى!

إن السفن تنام هادئة في ظلال الخليج، ولا ينبعث منها نور أو صوت يفضح ما حدث!

* * *

إن النهار يطلع متأخراً كئيباً في تلك المناطق الموحشة. والسفن الخمس جامدة في أماكنها، في سجنها البارد داخل الخليج. وليست هناك أية إشارة ظاهرة، تجعل ماجلان يدرك أن ابن خاله وصديقه، وجميع البرتغاليين في السفينة سان أنطونيو مكبلون بالحديد، وأن رباناً عاصياً قد تسلم قيادتها. ففي أعلى الصارية تخفق الراية نفسها، ويبدو أن لاشيء قد تغير...

أرسل ماجلان، كما يفعل صباح كل يوم، زورقاً إلى الشاطئ لبجيء بحاجة القافلة كلها من خشب ومياه عذبة. واقترب الزورق، كما يفعل كل يوم أيضاً، من السفينة «سان أنطونيو» التي ترسل بانتظام بعض بحارتها للاشتراك في العمل اليومي.

ولكن، يا للدهشة! لم يلق سلم من الحبال من السفينة «سان أنطونيو» عندما اقترب الزورق منها، ولم يتقدم أحد من بحارتها. ولما رفع بحارة الزورق أصواتهم منادين بحارة السفينة بأن يعجلوا بالمجيء، كان الرد على صياحهم أن هذه السفينة لن تتلقى بعد الآن الأوامر من ماجلان، بل من الربان جسبار كويسادا دون سواه. وصدم الرد بحارة الزورق، فلم يسعهم إلا أن يعودوا إلى سفينة القيادة مسرعين، ليبلغوا أمير البحر ما حدث.

وأدرك ماجلان فوراً حقيقة الموقف: أن السفينة «سان أنطونيو» قد أصبحت في قبضة العصاة. ولكن، حتى هذه المفاجأة لم تعكر لحظة واحدة صفاء ذهنه. فإن أول ما فكر فيه، أن يعرف مدى خطورة الحادث. فكم سفينة لا تزال خاضعة له؟ وكم سفينة تمردت عليه؟

عاد الزورق إلى السفن الأخرى واحدة واحدة، ثم عاد لينبئه أن جميع السفن، ما عدا السفينة «سنتياغو» قد انحازت إلى العصاة، وهي: السفينة «سان أنطونيو» والسفينة «كونسبسيون» والسفينة «فكتوريا» وبذلك أصبحت ثلاث سفن ضد سفينتين، بل سفينة واحدة، إذ أن السفينة «سنتياغو» لا يقام لها وزن يذكر إذا احتدم بين السفن القتال.

إذن، فالقضية خاسرة، وإن أي رجل آخر غير ماجلان ليعدها كذلك. فالعمل الذي وقف له ماجلان بضع سنين من حياته، قد انهار كله في ليلة واحدة، ولا يسعه أن يواصل سفره، بسفينة واحدة، نحو الهدف المجهول. ومع ذلك، إذا كانت السفن الأخرى ضرورية له فليس في مقدوره أن يرغمها على طاعته. ولا يمكن أن ينتظر نجدة من أية جهة... وهكذا، لم يبق أمام ماجلان غير الاختيار بين أمرين: أولهما وهو ما يبدو مطابقاً للعقل والمنطق، نظراً لتفوق خصومه - أن يعدل عن الموقف الذي وقفه إلى الآن، ويسعى إلى التفاهم مع الربابنة الإسبانيين. والثاني - وهو ما يبدو على جانب من الحماقة وإن كان بالغاً منتهى الجرأة - أن يعمد إلى هجوم خاطف لإعادة العصاة إلى صوابهم، برغم أنه قانط من النجاح!

* * *

إن كل شيء يرجح الحل الأول. فإن الربابنة الإسبانيين لم يوجهوا بعد أي تهديد إلى ماجلان، ولم يرسلوا إليه أي إنذار. وسفنهم لا تزال جامدة في أماكنها، وليست هناك نية القيام بأي هجوم. وبالرغم من أنهم يملكون التفوق في القوى، فإنهم لا يرغبون، وهم على بعد آلاف الأميال من وطنهم، أن يخوضوا غمار حرب أهلية حمقاء. إنهم يذكرون جيداً اليمين التي أقسموها في كنيسة أشبيلية. ويعرفون جيداً ما هو العقاب المعيب الذي يحل بالعصاة والفارين من الجيش. وإن رجالاً من النبلاء أمثال جوان دي كرتاجينا، ولويس دي مندوسا، وجسبار كويسادا، وأنطونيو دي كوكا، أولاهم الملك ثقته، يهمهم ألا يعودوا إلى إسبانيا ملطخين بالعار موصومين بالخيانة. ولهذا كله، فإنهم لا يتذرعون بتفوقهم العددي، بل يعلنون منذ البداية استعدادهم للمفاوضة: فإن غرضهم من الاستيلاء على السفينة «سان أنطونيو» ليس إعلان العصيان، بل الضغط فقط على أمير البحر، وحمله على إعطائهم الإيضاحات التي يطلبونها.

إذن، فالرسالة التي بعث بها جسبار كويسادا إلى ماجلان باسم الربابنة الإسبانيين، ليست تحدياً على الإطلاق. بل بالعكس، لقد توجت بكلمة «استرحام». وهي تبدأ بعبارات مهذبة جداً، يبرر بها كاتبها العمل الذي أقدم عليه الربابنة. إن المعاملة المهينة، التي لقوها من أمير البحر، هي وحدها التي جعلتهم مرغمين على الاستيلاء على سفينة عهد الملك إليهم بقيادتها. ولكن هذا لا يعني أنهم يفكرون في منازعة ماجلان السلطات التي تلقاها من جلالته. وهم يكتفون الآن بمطالبة ماجلان

بأن يحسن معاملتهم في المستقبل. فإذا أجاب أمير البحر هذه الرغبة العادلة، فإنهم لا يخدمونه طائعين فحسب، كما يقضي عليهم واجبهم، بل يخدمونه باحترام تام.

كانت هذه الرسالة تعبر عن رغبة واضحة في التفاهم، ولكن ماجلان قد اعتزم من ناحيته الالتجاء إلى الحل الآخر، الحل الجريء! فقد أدرك بنظرة واحدة أين موضع الضعف عند خصومه: إنهم مفتقرون إلى رباطة الجأش. ولهجة استرحامهم تنم عن أن زعماء العصاة ليسوا عازمين على الالتجاء إلى الوسائل القصوى، وهذا سبب ضعفهم. وإذا عرف ماجلان كيف يستغل هذا النقص، قبل أن يتفقوا فيما بينهم، فإن الحظ سينتقل من ناحية إلى ناحية، والقضية الخاسرة يمكن أن تصبح رابحة!

غير أن الجرأة في نظر ماجلان هي أن يضرب ضربة قاضية يعد لها العدة بدقة وإحكام، ويوفر لها جميع عوامل النجاح حتى لا تتعرض لخطر الفشل. وقد يعتزم ماجلان الإقدام على عمل جريء في لحظة واحدة، ولكنه يقضي أياماً أو شهوراً في إعداد العدة له.

وقد عقد ماجلان عزمه في لحظة واحدة على أن يوجه ضربة قاضية لخصومه الربابنة. ثم انصرف إلى الاستعداد لها ودرس تفاصيلها. فقد أدرك أنه يجب عليه قبل كل شيء أن يفعل ما فعله الربابنة بالأمس، فيستولي على سفينة من السفن المتمردة، لكي يسترد التفوق الذي فقده. غير أن المسألة التي كانت سهلة لديهم ستكون صعبة لديه. فقد داهم العصاة إحدى السفن ليلاً وهي جاثمة نائمة، بينما كان ربانها ورجالها لا يساورهم أدنئ قلق على مصيرها. ولم يكن أمام المهاجمين أن يتغلبوا على أيسر مقاومة، أو يخوضوا أية معركة. أما الآن، فقد طلع النهار. وربابنة السفن العاصية الثلاث يرقبون بحذر كل حركة على ظهر سفينة القيادة، ومدافعهم معدة لإطلاق قنابلها في كل لحظة، وقاذفات السهام متحفزة. والعصاة يعرفون ماجلان معرفة جيدة، ولا يجهلون أنه قد يقدم على هجوم متهور.

نعم إنهم يعرفون مبلغ شجاعته. ولكنهم لا يعرفون مبلغ مكره، ولا يتصورون أن هذا الرجل السريع الخاطر سيضرب ضربته في وضح النهار، مع حفنة من الرجال، وعلى مرأى من سفن ثلاث كاملة السلاح.

ومن ومضات عبقريته المدهشة، أنه لم يقع اختياره على السفينة «سان أنطونيو» حيث ابن خاله مسكيتا سجين مكبل بالحديد، ليضرب ضربته. فإن العصاة ينتظرون طبعاً أن يكون الهجوم الأول على هذه السفينة. وكانوا ينتظرون الهجوم من

اليمين، ففاجأهم به ماجلان من اليسار، لاضد السفينة «سان أنطونيو» بل ضد السفينة «فكتوريا».

وقد أعد التفاصيل بدقة عظيمة للقيام بهذا العمل. وأول ما صنعه، أنه احتفظ بالزورق وبالرجال الذين جاؤوا به حاملين «الاسترحام» والاقتراح بفتح باب المفاوضة مع جسبار دي كويسادا. وبهذا حصل على نتيجتين: الأولى، أنه أفقد العصاة بعض رجال السفينة المتمردة، والثانية، أنه أصبح لديه زورقان بدل الزورق الواحد، وهذا التفوق سيكون له فائدة حاسمة كما سيتضح فيما بعد. فإن ماجلان أصبح في وسعه أن يحتفظ بزورقه، وأن يرسل رئيس الشرطة في سفينته[١]، جوازيل غوميز دي اسبينوزا، في زورق الخصوم، ومعه خمسة رجال، إلى السفينة «فكتوريا» ليسلم رسالة إلى ربانها لويس دي مندوسا.

ولم تثر الشكوك في نفوس العصاة على ظهر السفينة عندما أقبل عليهم الزورق الصغير. ولم يساورهم أي قلق، إذ لا يمكن أن يهاجم خمسة رجال في زورق سفينة فيها ستون رجلاً، ويتولى قيادتها ربان مجرب كلويس دي مندوسا؟

إنهم لا يرون الأسلحة التي أخفاها أولئك الرجال الخمسة تحت ثيابهم، ولا يعلمون أن غوميز دي اسبينوزا قد كلف من قبل أمير البحر بمهمة خطرة. وها هو غوميز يتسلق السفينة ببطء مقصود، إذ إن كل دقيقة قد أعدت لأمر معين. وها هو يسلم الربان لويس دي مندوسا كلمة من ماجلان، يدعوه فيها إلى مقابلته على ظهر سفينة القيادة.

وقرأ مندوسا الكلمة، ولكنه لا يزال يذكر جيداً ما حدث على ظهر السفينة ترينيداد، يوم اعتقل جوان دي كرتاجينا فجأة كأنه مجرم عادي. فهو إذن لن يدع أمير البحر يجره إلى الفخ. ولما انتهى من القراءة، ارتسمت على شفتيه ابتسامة متهكمة وقال في نفسه: «لن تنالني!» ولكن هذه الابتسامة تحولت فجأة إلى صرخة ألم: فقد نفذ خنجر رئيس الشرطة إلى عنقه!

وفي هذه اللحظة ذاتها ـ وهنا تتجلى الدقة المدهشة التي حسب بها ماجلان حساباً لكل دقيقة وكل متر من المسافة الفاصلة بين السفينتين ـ في هذه اللحظة ذاتها، تسلق السفينة المتمردة خمسة عشر رجلاً بكامل أسلحتهم، يقودهم دوراتي بربوسا، وقد نقلهم زورق السفينة «ترينيداد».

---

(١) يدعى رئيس الشرطة في إسبانيا «الجوازيل» وهي كلمة عربية محرفة أصلها «الوزير».

وجمد بحارة السفينة في أماكنهم مذهولين، يحدقون في جثة ربانهم. وقبل أن يتسنى للبحارة الوقت الكافي لاتخاذ أي قرار، كان دوراتي بربوسا قد تسلم قيادة السفينة، فجعل يصدر أوامره، وراح البحارة يطيعون مرتعبين. وفي دقيقة واحدة، رفعت المراسي، ونشرت القلوع، وقبل أن تدرك السفينتان الأخريان ما حدث، كانت السفينة «فكتوريا» قد اقتربت من سفينة القيادة.

والآن، تقف السفن الثلاث: «ترينيداد ـ وفكتوريا ـ وسنتياغو» تجاه السفينتين «سان أنطونيو ـ وكونسبسيون» وتسد منفذ الخليج لتحول دون الخروج منه.

وبهذا الهجوم الخاطف، مالت كفة الميزان من ناحية ماجلان، وأصبحت القضية الخاسرة قضية رابحة. وفي خمس دقائق، انتقل الربابنة العصاة من التفوق إلى الضعف، ولم يبق أمامهم إلا أن يهربوا، أو يقاتلوا، أو يسلموا أنفسهم بلا قيد ولا شرط. لكن أمير البحر قد احتاط لمنع هربهم. أما القتال، فقد ضاعت الفرصة لخوض غماره، لأن هجوم ماجلان المفاجئ قد حطم شجاعة خصومه. وعبثاً حاول جسبار دي كويسادا أن يحمل رجاله على القتال، وقد تقلد سلاحه كاملاً، وأمسك رمحاً بيد وسيفاً باليد الأخرى. فالبحارة الخائفون لا يطيعون. وما إن وصل زورق آخر يحمل فريقاً من رجال ماجلان، حتى قضى على كل مقاومة في السفينتين «كونسبسيون، وسان أنطونيو».

وأخرج ألفارو دي مسكيتا من سجنه. واستعملت سلاسله لتقييد الربابنة العصاة!

* * *

إن الصراع بين ماجلان والربابنة الإسبانيين كان شبيهاً ـ في سرعته وشدته ـ بعواصف الصيف، فإن أول قصف للرعود قد اقتلع العصيان من جذوره. غير أن هذا الذي حصل قد لا يكون غير المرحلة السهلة من الصراع، إذ أن معاقبة المذنبين، من الناحية القانونية، لابد أن تتبع بكل صرامة. وهنا جعل القائد المنتصر يستشير ضميره متسائلاً عما يجب عليه أن يفعل. فإن المرسوم الملكي يخوله حق الحياة والموت بالنسبة إلى رجال السفن الخاضعين لقيادته. غير أن المذنبين الحقيقيين في هذا الحادث هم الرجال الذين أولاهم الملك ثقته. وإذا أراد ماجلان أن يحافظ على سلطته، فيجب عليه أن يعاقب العصاة بصورة تكون عبرة للآخرين. ومع ذلك، فليس في وسعه أن يعاقب جميع الذي تمردوا. وكيف يستطيع مواصلة الرحلة إذا نفذ

القانون وأعدم خمس البحارة في سفنه؟ وهل في مقدوره أن يستغني عن مائة رجل، وهو في هذه المناطق الموحشة، وعلى بعد آلاف الأميال من إسبانيا؟ إذن، لابد له من الرأفة بالذين كان يجب عليه أن يعدمهم. ولكن بعد أن يرعبهم بضربة تكون درساً لهم.

وبعد تفكير طويل، قرر ماجلان ألا يضحي غير رجل واحد: جسبار دي كويسادا، الذي استخدم سلاحه وأصاب رفيقه الأمين ايلورياجا إصابة قاتلة.

وبدأت إجراءات المحاكمة الجنائية. وجيء بالكتبة والشهود، وملأت المحاضر صفحات عديدة، وفاقاً للوائح والأنظمة، كما يحدث تماماً في محاكم أشبيلية أو سرقسطة. ووقع الاختيار على مسكيتا رئيساً للمحكمة، وحوكم جسبار دي كويسادا بتهمة العصيان والقتل. ونطق ماجلان نفسه بالحكم: لقد اعتبر المتهم مذنباً وحكم عليه بالإعدام ضرباً بالسيف!

ولكن، من ينفذ الحكم؟ فإنه يصعب أن يوجد بين البحارة من يتطوع للقيام بمهمة الجلاد. ولهذا، فقد وجد الحل الآتي: فإن البحار الملازم لكويسادا قد اشترك أيضاً في الاعتداء على ايلورياجا، وثبتت عليه أيضاً تهمة القتل. ولكنهم سيعفون عنه إذا رضي بأن ينفذ بيده إعدام رئيسه. كان موقف البحار مفجعاً: فإما أن يعدم رئيسه وإما أن يعدم هو. غير أنه قبل في النهاية، وبضربة سيف واحدة، قطع الرجل رأس ربانه وأنقذ رأسه.

ثم نفذت الإجراءات المرعية في ذلك العصر البربري. وقطعت جثة جسبار دي كويسادا وجثة لويس دي مندوسا إرباً، وعلقت أعضاء الجثتين على أوتاد. وهكذا نقلت إلى بتاجونيا العادات الوحشية كما كانت متبعة في برج لندن وغيره من أماكن تنفيذ أحكام الإعدام.

وبقيت مسألة إصدار حكم آخر، ولا يمكن أن يقال إن هذا الحكم كان أهون من الإعدام بالسيف. فإن جان دي كرتاجينا، الزعيم الحقيقي للعصيان، وكاهن السفينة، دأبا دائماً على تحريض البحارة على التمرد، وذنبهما لا يقل عن ذنب الضابطين اللذين قتلا. ولكن كيف السبيل إلى تكليف الجلاد بإعدام الرجل الذي ألحقه الملك بالسفن بوصفه مساعداً للقائد العام؟ وكيف السبيل إلى سفك دم كاهن مسح رأسه بالزيت المقدس؟... إن أمير البحر ماجلان الورع لا يجرؤ على هذا. ومن جهة أخرى، لا يمكن تركهما في إحدى السفن مكبلين بالحديد آلاف الأميال. وأخيراً، تهرب

ماجلان من اتخاذ أحد القرارين، بأن حكم عليهما بأن يتركا على الساحل. ولما أقلعت السفن مستأنفة رحيلها، أعطى الرجلان كمية من المؤن تكفيهما مدة من الزمن، وأنزلا إلى البر، وتركا على شاطئ سان جوليان، على أن يتولى الله تقرير مصيرهما النهائي!

* * *

فهل كان ماجلان في تصرفه هذا على صواب أم ضلال؟ وهل يمكن الاعتماد على المحاضر التي كتبها ابن خاله ألفارو دي مسكيتا، ولم يترك فيها مجالاً لدفاع المتهم؟ ومن ناحية أخرى، هل يمكن تصديق ما صرح به الضباط الإسبانيون في أشبيلية فيما بعد من أن ماجلان دفع اثني عشر دوكا[1] لرئيس الشرطة ورجاله، ليغتالوا لويس دي مندوسا. وأنه وعدهم علاوة على ذلك بأن يعطيهم أموال الضابطين الإسبانيين؟... فهل ينبغي أن نأخذ بهذه الأقوال التي لم يرد عليها ماجلان لأنه مات في الطريق ولم يعد إلى إسبانيا؟

وإذا كان التاريخ قد برر عمل ماجلان وبرر تصرفه، فيجب ألا يغيب عن البال أن التاريخ دائماً مع الغالب ضد المغلوب. وقد كتب هيبل[2] يقول: «لا يهم التاريخ أن يكون حادث معين قد وقع على هذا النحو أو ذاك. فالتاريخ دائماً يقف في صف الغالب». ولو لم يكن ماجلان قد وجد الممر الذي بحث عنه، وحقق العمل العظيم الذي خلد اسمه، لوصف التاريخ إعدام الضابطين الإسبانيين بأنه جريمة أثيمة. ولكن، لما كانت الحوادث قد تطورت لمصلحته، فإن ستار النسيان قد أسدل على الذين ماتوا ميتة لا مجد فيها. ونجاح ماجلان قد برر قسوته وصلابته من الناحية التاريخية.

---

(١) الدوكا عملة ذهبية كانت تساوي نحو عشر فرنكات وأول من صك هذه العملة جمهورية البندقية.

(٢) شاعر ألماني له مسرحيات رائعة (١٨١٣ - ١٨٦٣).

الساعة الرهيبة

أبريل ١٥٢٠ - نوفمبر ١٥٢٠

أرغم الشتاء سفن ماجلان على البقاء أربعة أشهر في خليج سان جوليان الكئيب الملعون. والوقت يمر فارغاً ثقيلاً. ولهذا فإن أمير البحر، الذي علمته التجارب أن البطالة تحفز البحارة إلى التململ، قد قرر أن يشغل أوقاتهم بأعمال مستمرة، فأمرهم بإصلاح السفن التي أنهكتها رحلة دامت سنة كاملة، وأصدر تعليماته بقطع الأشجار وصنع ألواح الخشب. ولعله ابتكر أعمالاً لا ضرورة لها، ليجعل البحارة يعتقدون أن الرحلة ستستأنف قريباً، وأنهم أوشكوا على مغادرة ذلك القفر البارد متجهين نحو الجزر الساحرة.

وأخيراً ظهرت بوادر الربيع... ففي الأسابيع الماضية القاتمة الباردة، خيل للبحارة أنهم سجناء بقع جرداء، لا إنسان فيها ولا حيوان. وزاد هذا الشعور انحطاط معنوياتهم. وذات صباح، ظهر على قمة تل خيال غريب، خيال رجل، ظن البحارة بادئ الأمر أنه مخلوق غير بشري، فقد بدا لهم بقامة هائلة، أثارت دهشتهم وخوفهم، وكتب عنه بيير مرتير يقول إن قامته كانت غير عادية. أما بيجافيتا فكتب ما يلي:

«كان طويل القامة حتى إن أطولنا لم يبلغ نصف قامته الهائلة. وكان قوي البنية، عريض الوجه، حول عينيه هالات حمر وصفر، وعلى خديه بطحتان في شكل قلب. وكان شعره قصيراً أبيض. أما ثيابه فمن جلود بعضها موصول ببعض».

وأثار دهشة البحارة على الخصوص منظر قدمي هذا الوحش البشري. وبسبب

قدميه الكبيرتين أطلقوا على سكان تلك البلاد اسم «باتاجون» وعلى البلاد نفسها اسم «باتاجونيا». وكلمة «باتاجاو» معناها بالإسبانية «القدم الكبيرة».

غير أن الخوف الذي بعثه في نفوسهم ذلك العملاق سرعان ما اختفى. فقد بسط الرجل ذراعيه ضاحكاً، وجعل يرقص ويغني ويرش الرمل على شعره المصبوغ. وكان ماجلان قد ألف في رحلاته السابقة عادات سكان الأقطار النائية، فأدرك معنى حركات المارد، وفسرها بأنها رغبة منه في الاتصال السلمي مع الأغراب. فأصدر أمره إلى أحد البحارة بأن يرقص مثل الرجل ويرش الرمل على رأسه.

وكان فرح البحارة عظيماً عندما رأوا الرجل يتقبل ذلك كأنه إشارة ترحيب، ويقترب منهم. وللمرة الأولى، وجد البحارة وسيلة للتسلية. فقد وضعوا أمام العملاق مرآة حدق فيها ثم قفز مدهوشاً إلى الوراء، فسقط على الأرض وسقط معه أربعة رجال. وكان نهمه في التهام الطعام عجيباً. وقد نسي البحارة المساكين، وهم ينظرون إليه، أن جراياتهم محدودة. وفتحوا أعينهم مذهولين عندما رأوا «جرجانتوا»(١) هذا يشرب جردل ماء دفعة واحدة، ويلتهم نصف سلة من البقسماط كأنه يأكل قطعة من الحلوى. ويا لها من قهقهة، عندما ابتلع العملاق بضعة جرذان بجلدها وعظامها، قدمها له البحارة!... ونشأت صداقة بينهم وبين ذلك الرجل المتوحش. ولما أهداه ماجلان بضعة أجراس صغيرة، ذهب العملاق ثم عاد ومعه غيره من العمالقة، و«العملاقات» أيضاً!

ولكن عدم الحذر من جانب أولئك المساكين أبناء الطبيعة، سيكون سبب هلاكهم. فقد تلقى ماجلان من بيت الهند ـ كما حدث من قبل لكريستوف كولومب وغيره من المكتشفين ـ تعليمات صريحة بأن يحمل معه عند عودته إلى إسبانيا، بعض نماذج لا من النبات والمعادن فقط، بل من الأجناس البشرية أيضاً.

وخيل للبحارة أن اصطياد مثل هذا المارد حياً لن يكون أسهل من اصطياد حوت يمسك من زعانفه. فهم يدورون مرتبكين حول أولئك «الباتاجون» ولكن الشجاعة تخونهم في اللحظة الأخيرة. وفي النهاية، عمد البحارة إلى حيلة خبيثة. فقد أعطوا لاثنين من العمالقة كمية من الهدايا اضطر الرجلان أن يحملاها باليدين كي لا يقع منها شيء على الأرض. ثم أشار البحارة إلى سلسلتين أخريين من الحديد

---

(١) جرجانتوا ؛ مارد نهم . بطل رواية للكاتب الفرنسي رابليه بهذا العنوان ، نشرت سنة ١٥٣٤ .

اللامع، وسألوهما إذا كانا يريدان أن يضعا هذه الحلي في أقدامهما. فضحك الرجلان فرحين، وأشارا بأنهما يريدان ذلك. وظلا واقفين، وفي أيديهما الهدايا، ينظران إلى البحارة وهم يضعون في أقدامهما تلك السلاسل التي تنبعث منها رنات عذبة... ثم قضي الأمر!

كبل البحارة الماردين بالقيود الحديدية، وأصبح في وسعهم الآن أن يطرحوهما على الأرض بلا خوف، كأنهما كيسان من الرمل.

وأرسل الماردان التعسان صيحاتهما عبثاً في الفضاء وجعلا يتخبطان على رمل الشاطئ، ويضربان بأيديهما يميناً ويساراً، ويستنجدان بربهما «سيتيبوس» الذي وضع شكسبير اسمه في إحدى رواياته...

جر البحارة العملاقين على الرمل كأنهما ثوران مقهوران في حلبة المصارعة، وحملوهما إلى السفن، ولكنهما سيموتان ميتة بشعة فيما بعد، بسبب حرمانهما من الطعام!

وقد قضى هذا العدوان من رسل المدنية على علاقات الصفاء التي كانت قائمة بينهم وبين السكان دفعة واحدة ومنذ ذلك الوقت، ابتعد هؤلاء «الباتاجون» عن البحارة. وأراد بعض الرجال ذات يوم أن يقبضوا على بضع نساء من القوم، ولكن المتوحشين فروا أمامهم، ثم عادوا على أعقابهم وقتلوا واحداً من البحارة المطاردين.

حقاً، إن خليج سان جوليان هذا سيء الطالع على الإسبانيين وسكان البلاد على السواء. فإن ماجلان هنا لا يلاقي نجاحاً في شيء يقدم عليه. ويبدو أن الشؤم ملازم لهذا الشاطئ اللعين. ولهذا، فإن رجال السفن بدأوا يشكون ويطالبون بالعودة سريعاً إلى الوطن. وقال ماجلان في نفسه: نعم، يجب أن نرحل سريعاً، ويجب أن نستأنف السير. ونفد الصبر من الجانبين وتزايد هذا الشعور يوماً بعد يوم. وما كادت عواصف الشتاء تهدأ، حتى قرر ماجلان القيام برحلة كشف نحو الجنوب. فأرسل لهذا الغرض السفينة «سنتياغو» بقيادة الربان الأمين سراو. الذي كان عليه أن يسير في جهة معينة، ويفحص الخلجان الممتدة على الساحل، ويعود بعد زمن معين حاملاً معه أنباء ما عثر عليه.

وانقضت المدة المعينة، وبات ماجلان يرقب البحر قلقاً، لعله يرى سفينة سراو مقبلة من بعيد. وذات يوم، حدث شيء جديد ولكن ليس من ناحية البحر. فقد هبط من أعلى التل رجلان يتمايلان من العناء وظنهما البحارة لأول وهلة من الباتاجون،

وتأهبوا لإطلاق السهام عليهما، ولكن الرجلين العاريين صاحا ببعض كلمات إسبانية. واتضح أنهما من بحارة السفينة «سنتياغو».

إنهما يحملان نبأً سيئاً. فقد وصل سراو، في سيره جنوباً، إلى مصب نهر يكثر فيه السمك: نهر ريو دي سانتا كروز. ولكن عاصفة هوجاء داهمت السفينة فدفعتها إلى الشاطئ وتحطمت. وتمكن رجال السفينة كلهم من النجاة، ما عدا واحداً من الزنوج. وهم الآن ينتظرون النجدة في بؤس وفزع عند مصب ريو دي سانت كروز. أما هما، فقد سارا على أقدامهما على طول الساحل أحد عشر يوماً، حتى بلغا خليج سان جوليان، وكانا يقتاتان بالإعشاب وجذور الأشجار!

وأرسل ماجلان في الحال زورقاً عاد ببحارة السفينة الغارقة. ولكن القافلة فقدت إحدى سفنها، وهي أسرع السفن على الإطلاق. وكانت هذه أول خسارة تحل بالعمارة منذ بدء الرحلة، وهي، ككل خسارة تقع في بقعة نائية من العالم، لا يمكن أن تعوض...

وأصدر ماجلان أمره باستئناف السفر، في الرابع والعشرين من شهر أغسطس، وألقى نظرة أخيرة على المذنبين العاصيين اللذين تركا في ذلك المكان، وعلى خليج سان جوليان المشؤوم.

* * *

لابد أن تكون الأيام التالية أسوأ الأيام في حياة ماجلان: الأيام الوحيدة التي شعر فيها ذلك الرجل الواثق من نفسه عادة، بأن شجاعته تخونه. ومن مظاهر هذه الحالة النفسية، تصريحه بلهجة تصنع فيها العزم، عند إقلاع السفن من سان جوليان، بأنه مصمم على السير جنوباً في محاذاة الساحل، حتى يصل إذا لزم الأمر إلى خط العرض ٧٥.. فإذا لم يجد الممر الذي يبحث عنه، فعندئذ فقط يتبع الطريق المألوف، الذي يدور حول رأس الرجاء الصالح. فإن هذه العبارة: «إذا لزم الأمر» كافية وحدها للدلالة على أنه فقد الثقة بنفسه. فهو للمرة الأولى يشير إلى إمكان العودة إلى الوراء. ويعترف أمام ضباطه أن الممر الذي يبحث عنه قد لا يكون له وجود، أو أنه موجود في مياه المحيط المتجمد في منطقة القطب الجنوبي.

إنه لم يفقد الاعتقاد الراسخ بوجود الممر فحسب... بل إن الشعور الداخلي الذي كان يحمله على الاعتقاد بوجود الممر قد فارقه أيضاً في الساعة الفاصلة.

وفجأة، وعلى أبواب النصر، تعلو الغشاوة نظره الثاقب كأن الآلهة الناقمة قد

عصبت عينيه. ففي ذلك التاريخ أي في يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٥٢٠ ـ الذي أصدر فيه ماجلان أمره إلى بحارته بالنزول إلى البر مرة أخرى، كان الرجل قد بلغ فعلاً الهدف الذي يقصد إليه!

إنه لا يبقى عليه غير اجتياز درجتين من خط العرض، والسير في البحر مدة يومين اثنين بعد أن مكث فيه ثلاثمائة يوم، ولم يبق إلا قطع بضعة أميال بعد أن قطع آلاف الأميال. نعم لم يبق عليه غير هذا، ليستطيع أن يرسل صيحات الفرح. ولكن، يا لسخرية القدر وقسوته! فإن المسكين لا يعرف، أن ما يبحث عنه قد أصبح في متناول يده. وها هو ذا يقضي شهرين طويلين منتظراً، عند مصب ذلك النهر الصغير، على ذلك الساحل الأجرد المهجور، أشبه برجل فاجأته عاصفة الثلج ففقد جلده، غير مدرك أنه عند باب بيته، وأن ليس عليه إلا أن يخطو بضع خطوات ليظفر بالنجاة.

إن ماجلان ينتظر شهرين والغيظ يأكل أحشاءه، ويتساءل هل يبلغ ذلك الممر، في حين أن المضيق الذي سيخلد اسمه إلى الأبد موجود على مسيرة يومين من المكان الذي ينتظر فيه! والرجل ذو الإرادة الحديدية الذي يريد أن ينتزع من الأرض سرها، سيظل قلبه حتى اللحظة الأخيرة، نهباً للشك يمزق نياطه!

* * *

ولكن ما أروع النجاة بعد ذلك العذاب! إن السعادة لا يبلغ أوجها غير رجل ينطلق من أعماق اليأس!

ففي ١٨ أكتوبر سنة ١٥٢٠، بعد ترقب عقيم استغرق شهرين أصدر ماجلان مرة أخرى أمره باستئناف الرحيل. فأقيمت صلاة، اشترك فيها جميع البحارة، ثم نشرت السفن قلوعها واتجهت إلى الجنوب. وأسرعت الزوابع مرة أخرى لملاقاتها، فاضطر البحارة أن يغالبوا عناصر الطبيعة ساعة بعد أخرى، ولم يكن يقع النظر على شيء من الخضرة. فالساحل يمتد دائماً كما كان: مقفراً خالياً موحشاً... لا شيء غير الرمال والصخور، ثم الصخور والرمال... وفي اليوم الرابع، أي في ٢١ أكتوبر سنة ١٥٢٠، رأى البحارة لساناً داخلاً في البحر تكتنفه صخور بيضاء، وهو يشرف على ساحل البحر مشققاً ممزقاً. ووراء ذلك الرأس ـ الذي أطلق عليه ماجلان «رأس العذارى» إكراماً للعذارى القديسات ـ يمتد خليج عميق ذو مياه قاتمة. فاقتربت منه السفن... وما كان أروع ذلك المنظر وأغربه، حين أخذته الأعين: جدران من الصخور ترتفع عمودية، تتخللها شقوق عميقة، وتبدو من بعيد قمة عالية يكللها الثلج.

ها هو ذا كل شيء ميت أمام السفن وحولها... فأنظار البحارة لا تقع إلا على قليل من الأشجار والأشواك. وهزيم الرياح وحده يمزق سكون ذلك الخليج الأجرد. فأخذ رجال السفن ينظرون إلى المياه الكئيبة، وقد خيل إليهم أنه لا يمكن أن يكون هذا الخليج الذي تحيط به الجبال، وهذه المياه السوداء كمياه الجحيم، منفذاً إلى ساحل منبسط، أو إلى بحر الجنوب، ذلك البحر الصافي، النير، الذي تشرق عليه الشمس، والذي طالما رأوه في أحلامهم. وأجمع قادة السفن على أن هذا الشق لا يمكن أن يكون غير خليج ضيق طويل، كتلك الخلجان الكثيرة في شمال أوروبا. فلا فائدة من فحصه وسبر غوره. لقد ضيع البحارة وقتاً طويلاً في فحص جميع الخلجان على ساحل باتاجونيا، فلا داعي إذن إلى الوقوف في ذلك المكان. وعلى السفن أن تسير إلى الأمام. وإذا لم يظهر المر المنشود في وقت قريب، فلتغتنم السفن فرصة الفصل الملائم من فصول السنة لتعود إلى الوطن، أو فلتسر إلى المحيط الهندي بطريق رأس الرجاء الصالح.

غير أن ماجلان، الذي تملكته فكرة الطريق الخفية، ألح على رجاله بأن يفحصوا الخليج الغريب. ونفذ قادة السفن أمره متذمرين. وكانوا يفضلون مواصلة السير إلى الأمام. وقد كتب بيجافيتا عن ذلك يقول: «كنا نظن جميعاً أن ذلك الخليج مغلق».

وتقرر أن تبقى عند مدخل الخليج، سفينة القيادة، والسفينة «فكتوريا» وأما السفينة «سان أنطونيو» والسفينة «كونسبسيون» فقد تلقتا الأمر بالانطلاق إلى أبعد ما يمكن أن تصلا داخل الخليج، على أن تعودا بعد خمسة أيام على الأكثر. فإن الوقت أصبح ثميناً، والمؤن تنقص يوماً عن يوم. ولا يسع ماجلان المكث هنا طويلاً كما فعل في ريو دي لابلاتا. وتلك الأيام الخمسة هي آخر سهم يطلقه في هذه المحاولة!

ها قد أزفت الساعة الرهيبة!... فقد اعتزمت السفينة «ترينيداد» والسفينة «فكتوريا» الباقيتان مع ماجلان، استكشاف الجزء الخارجي من الخليج، إلى أن تعود السفينتان الأخريان. ولكن الطبيعة تتمرد مرة أخرى، كأنها تريد منعهم من تمزيق الستار عن أسرارها. فقد هبت فجأة عاصفة عنيفة كالعواصف المألوفة في تلك المناطق، والتي كتب عنها في الخرائط الإسبانية القديمة: «هنا لا توجد فصول ملائمة طول السنة!».

وفي لحظة واحدة، امتلأ الخليج بزبد أبيض. وانقطعت الحبال المشدودة إلى المراسي في السفينة «ترينيداد» والسفينة «فكتوريا». وجعلت الرياح تدفع

بالسفينتين ذات اليمين وذات اليسار، وقد طويت فيهما القلوع. وساعدهما الحظ فلم تقذف بهما الرياح على صخور الشاطئ. واستمرت العاصفة يومين كاملين. غير أن ما يشغل بال ماجلان ليس مصيره هو، إذ أن خطر الاندفاع إلى الشاطئ أهون على سفينته، منه على السفينة «سان أنطونيو» والسفينة «كونسبسيون» اللتين فاجأتهما العاصفة بلا شك داخل المضيق، حيث لا تجدان الفسحة الكافية للتمايل يميناً ويساراً ولا تتمكنان من إلقاء مراسيهما والالتجاء إلى مكان أمين. ولابد أن تكون السفينتان قد هلكتا، إلا إذا أنقذتهما معجزة!

كان الانتظار مقلقاً فظيعاً. فمر يوم، ثم آخر، فثالث، فرابع، والسفينتان لم تعودا بعد. وقد رأى ماجلان الحقائق جلية أمامه: فإذا هلكت السفينتان، ضاع كل شيء، ولن يمكنه أن يواصل رحلته بالسفينتين الباقيتين وحدهما. وعلى هذا، يكون حلمه، ومشروعه، قد تحطما على هذه الصخور.

وأخيراً، صدرت إشارة من حجرة المراقبة. ولكنها خيبة أمل مرة! فإن ما رآه البحار المراقب ليس السفينتين المنتظرتين، ولكنه عمود من الدخان يتصاعد عن بعد. ويا لها من لحظة مروعة: عمود من الدخان! إن هذا لا يدل إلى على شيء واحد، وهو أن بحارة هلكت سفينتهم وهم يطلبون النجدة. إذن، فالسفينة «سان أنطونيو» والسفينة «كونسبسيون» وهما أحسن السفن الأربعة، قد اصطدمتا بالشاطئ، ومشروع ماجلان فشل في هذا الخليج الذي لا اسم له!... وتأهب ماجلان لإصدار أوامره بإنزال الزوارق إلى الماء، والإسراع إلى البحارة المنكوبين لانتشالهم.

ولكن الحالة تتغير في هذه اللحظة الرهيبة.

قلوع في الأفق!... سفينة قادمة!... الحمد لله تبارك اسمه!... لقد نجت على الأقل إحدى السفينتين!...

كلا! بل إن السفينتين معاً قد عادتا سالمتين: السفينة «سان أنطونيو» والسفينة «كونسبسيون»!

ولكن، ماذا حدث؟ فما كادت السفينتان تبدوان للأنظار، حتى لمع منهما برق ثم تلته بروق، وحمل الصدى زمجرة المدافع وهي تقصف كالرعود! فماذا حدث؟ لقد اقتصدت السفن حتى تلك الساعة في ذخيرتها من البارود. فلماذا تطلق المدافع تلك الطلقات المتوالية؟ ولماذا رفعت على الصواري جميع الرايات والأعلام؟ لماذا يلوح الربابنة والبحارة بأيديهم من بعيد ويرسلون الأصوات صائحين؟ إن المسافة ما زالت

بعيدة والأذن لا تستبين الكلمات التي تطلقها حناجرهم. ولكن جميع البحارة، وماجلان قبل الجميع، قد فهموا معنى ذلك كله: إنها لغة الانتصار!

والواقع، إن النبأ الذي حملته السفينتان كان نبأ مباركاً!.. وقد أصغى ماجلان، وقلبه مفعم بالفرح، إلى التقرير الذي رفعه إليه سراو...

كانت الرحلة شاقة في بدئها. وكانت السفينتان قد توغلتا إلى بعيد داخل الخليج عندما هبت العاصفة. وبالرغم من أن البحارة أسرعوا فطووا قلوعهم، فقد دفعتهم الأمواج إلى الأمام. وظنوا أنها ستقذف بهم إلى الشاطئ في طرف الخليج. ولكنهم أدركوا فجأة أن الخليج غير مغلق، كما كانوا يظنون، بل مفتوح خلف نتوء صخري في شبه قناة. فسلكوا هذه الطريق الهادئة ووصلوا إلى خليج ثان، يضيق ثم ينفرج. وهكذا ظلوا يتقدمون خلال ثلاثة أيام دون أن يصلوا إلى نهاية تلك الطريق المائية. نعم إنهم لم يعثروا على منفذ لها من الناحية الأخرى، ولكن هناك شيئاً أكيداً، وهو أن هذه الطريق ليست نهراً. فالمياه فيها ملحة، والفرجة بين البحر والساحل واضحة منتظمة. فهي لا تضيق شيئاً فشيئاً كمجاري الأنهار كلما بعدت المسافة نحو الداخل. بل بالعكس، تتسع ولا تضيق، وتظل محتفظة بعمقها. ولهذا، فإن الأدنى إلى الصواب أن يكون هذا الخليج الضيق، الذي يشبه القناة، مؤدياً إلى بحر الجنوب، الذي ينشده الباحثون من زمن بعيد، والذي رأى نونيز دي بلبوا[١] شواطئه قبل ذلك ببضعة أعوام، من أعالي جبال بناما.

ويمكننا أن نتصور الفرح الذي بعثه في نفس ماجلان هذا النبأ المفعم بالأمل. فقد كان مصمماً على العدول عن مواصلة رحلته، وكان يفكر في العودة بطريق رأس الرجاء الصالح، ولا يعلم أحد أية صلوات توجه بها في خلواته إلى الله والقديسين، وأي نذور تقيد بها بعد أن رأى حلمه يتحقق في الساعة التي كان مشرفاً فيها على التراجع. فينبغي إذن أن لا تضيع لحظة واحدة... فلترفع المراسي، وتنشر القلوع!

طلقات أخيرة من المدافع لتحية الملك! وصلاة أخيرة على عزم القائد العام! ولتنطلق السفن بشجاعة في هذا السرداب! فإذا وجد ماجلان في هذه المياه السوداء طريقاً مؤدية إلى البحر الممتد من الناحية المقابلة، فسيكون أول من اكتشف الطريق لتحقيق الطواف حول العالم...

---

(١) نونيز دي بلبوا، ضابط ملاح إسباني. عبر بلاد بناما من الشرق إلى الغرب، وأشرف على المحيط الهادئ فكان أول أوروبي رأى ذلك المحيط، سنة ١٥١٣. وقد أعدم في سنة ١٥١٧.

ودخلت السفن الأربع المضيق، الذي دعاه ماجلان «مضيق جميع القديسين» نسبة إلى اليوم الذي تم فيه هذا العمل المجيد، ولكن الأجيال التالية، المعترفة بالجميل، سمته «مضيق ماجلان»!

* * *

إنه لمنظر عجيب ذلك الذي وقعت أعين البحارة عليه، عندما تقدمت السفن الأربع، دون ضوضاء، في ذلك الخليج الأسود الموحش، حيث لم يدخل رجل من قبل، لقد كان صمت الموت يكتنفهم من كل جانب، وكأن الجدران الصخرية تحدق فيهم بنظرات جامدة. وكانت صفحة الماء قاتمة تنعكس عليها سماء أشد قتامة. والسفن تتلمس طريقها بأناة في ذلك العالم الجهنمي.

ومن بعيد تلمع قمم الجبال المكسوة بالثلج، وتهب منها في الليل رياح باردة. ولا تقع العين على كائن حي. ومع ذلك، فلا بد أن يكون هناك بشر يسكنون تلك المناطق، لأن نيراناً تتراءى في الظلام. ولهذا، فإن البحارة قد أطلقوا على هذا المكان اسم «أرض النار».

ولم تكن الآذان تسمع صوتاً. ولا العيون ترى خيالاً. وقد أرسل ماجلان بعض البحارة في زورق إلى الشاطئ، فلم يجدوا أي نوع من المساكن، بل وجدوا بضع عشرات من القبور المهجورة وكلب بحر، قذفت أمواج البحر جثته على رمال الشاطئ.

ووقف البحارة، وقد انقبضت صدورهم، ينظرون بدهشة إلى ذلك المشهد الموحش. وخيل إليهم أنهم نقلوا فجأة إلى عالم آخر، إلى مكان ما في القمر! ومع ذلك، فإن عليهم أن يسيروا إلى بعيد، وبلا توقف، فالنسيم يدفع السفن فتمخر المياه السوداء، التي لم تمخر عبابها سفينة من قبل، والمسابر تلقى في البحر بلا انقطاع ولكنها لا تصل أبداً إلى القرار، وماجلان يرقب ما حوله قلقاً، وينظر إلى جميع الجهات خشية أن يبدو الخليج فجأة مغلقاً أمامه.

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، بل إن جميع الدلائل تشير إلى أن هذه الطريق ستؤدي في النهاية إلى البحر. غير أن هذه اللحظة لا تأزف، والطريق لا تزال غامضة، والنفوس لا تزال مضطربة. والرحلة الساحرة سائرة في ذلك الظلام المخيف، يواكبها هزيم الرياح المنبعثة من الجبال.

والطريق خطرة... فإن هذا الممر المائي لا يشبه في شيء تلك القناة الواسعة المريحة التي رسمها خيال العالمين شونز ومرنان بيهايم، في نورمبرج، على خرائطهما،

وهما قابعان في سكون مكتبهما. وإذا كان هذا الممر يدعى الآن «مضيقاً»، فما ذلك إلا على سبيل التورية، فهو، في الواقع، سلسلة متصلة من الشقوق، وسراديب من الخلجان والقنوات، لا يسهل اجتيازها إلا بالتغلب على عدة صعاب، والاستعانة بخبرة طويلة في الملاحة.

إن ماجلان يقسم سفنه قسمين، كلما بلغ منحنى في الخليج. وبينما تبحث سفينتان عن الطريق ناحية الشمال، تبحث السفينتان الأخريان عنها ناحية الجنوب. وهو يظن أنه ولد تحت طالع سيء، ولذا ينبغي أن لا يعتمد على حظه، فلا يدع للمصادفات أمر اختيار الطريق الملائمة، من مختلف الطرق التي تفتح أمامه. فهو يبحث ويستكشف ليجد الطريق الصالحة. وهكذا انتصرت مخيلته العجيبة كما انتصرت فضيلته العظمى، فضيلة الثبات الذي لا تنال منه الصعاب.

* * *

اجتازت السفن المضايق الأولى، ثم التالية، بدون حادث، ووصل ماجلان مرة أخرى إلى شبكة جديدة، تتفرع منها الطريق يميناً ويساراً. وقسم ماجلان مرة أخرى سفنه قسمين. فتلقت السفينة «سان أنطونيو» والسفينة «كونسبسيون» أمراً بمواصلة السير إلى الجنوب الشرقي، بينما يقوم هو، بسفينة القيادة، ومعها السفينة «فكتوريا» باستكشاف القناة إلى الجنوب الغربي. وضرب ماجلان موعداً للقاء بعد خمسة أيام على الأكثر، عند مصب نهر صغير أطلق البحارة عليه «بحر السردين» لكثرة الأسماك فيه. وأعطيت لقيادة السفن تعليمات بالغة الدقة تفادياً لضياع الوقت.

وأزف وقت الرحيل، واستعد البحارة لنشر قلوعهم. ولكن شيئاً جديداً حدث في اللحظة الأخيرة: فقد دعا ماجلان ربابنة السفن، لأنه يريد أن يطلع على حالة التموين، ويعرف رأي الربابنة فيما يحسن أن يصنعوا: هل يواصلون السفر أم يرجعون على أعقابهم؟

ماجلان يريد أن يعرف رأي ربابنته؟ ماذا حدث إذن؟ ولماذا يلح ليعرف رأيهم، وهو الذي لم يسمح لأحد منهم من قبل بانتقاد أوامره أو توجيه سؤال إليه مهما يكن تافهاً؟ وكيف طرأ ذلك التغير على مسلكه؟

على أن الواقع أنه ليس أقرب إلى المنطق من هذا المسلك. فإن الحاكمين بأمرهم لا يصيخون إلى آراء غيرهم إلا بعد أن يكونوا قد أحرزوا النصر. والآن وقد وجد

ماجلان الممر الذي يبحث عنه، فإنه لم يعد يخشى سؤالاً يوجه إليه. والآن وقد أصبحت الورقة الرابحة في يده، ففي وسعه أن يلبي رغبة ربابنته، ويلقي بأوراقه على المائدة، وإنه ليسير على المرء أن يكون عادلاً في أيام السعد، عسير عليه ذلك في أيام الشؤم. فهذا الرجل الذي كان سجين صمته يستطيع الآن أن يتكلم ومنذ اللحظة التي انكشف فيها نقاب سره، أصبح في مقدوره أن يتبادل الآراء مع معاونيه.

ذهب الربابنة إليه وقدموا تقاريرهم التي لم يكن فيها ما يبعث السرور في نفس ماجلان، فقد نقصت المؤن نقصاً مروعاً، ولم يبق منها غير ما يكفي ثلاثة أشهر تقريباً.

وهنا تكلم ماجلان...

لقد بلغت السفن الهدف الأول من رحلتها وهو الممر المؤدي إلى بحر الجنوب، فهل يكتفي ماجلان بهذا الفوز، أم يواصل إنجاز كل ما وعد به الإمبراطور، فيبلغ جزر التوابل، ويستولي عليها باسم إسبانيا؟

نعم، إنه يعلم أن المدخر من المؤن محدود جداً، وأن هناك عقبات كبيرة لابد من التغلب عليها. ولكن الرحلة لو كللت بالنجاح، لظفر الجميع بالمجد والثراء، إنه ما زال قوياً لا يتزعزع، غير أنه يريد معرفة رأي ضباطه قبل أن يتخذ قراره.

إن الرد الذي تلقاه ماجلان من الربابنة وقادة السفن لم يصل إلينا ولكن يغلب على الظن أن معظمهم لاذ بالصمت، لأنهم يذكرون جيداً ما حدث على ساحل سان جوليان، وما حل برفاقهم من عذاب، وليس في معاكسة إرادة هذا الرجل مغنم ولا راحة. ولكن واحداً منهم فقط وجد في نفسه الجرأة فعبر عن رأيه بصراحة وجلاء، وهو استيفاو غوميز، المكلف بتسيير السفينة «سان أنطونيو» وهو برتغالي، يقال إنه من أقارب ماجلان. فقد قال غوميز إنه، مادامت الدلائل تشير إلى أنهم اكتشفوا الممر المنشود، فخير لهم أن يعودوا إلى إسبانيا، ثم يستأنفوا الرحلة إلى الجزر بسفن جديدة. فهو يرى أن سفن القافلة لم تعد صالحة لمواصلة السفر، ولم يعد المخزون من المؤن كافياً، ولا يعلم أحد إلى أية مسافة يمتد بحر الجنوب. فإذا تاهوا في هذا المحيط المجهول، ولم يبلغوا سريعاً مرفأ أميناً، فإن السفن صائرة لا محالة إلى الهلاك!

إن الحكمة هي التي نطقت بلسان استيفاو غوميز، ويبدو أن بيجافيتا، الذي يسيء الظن في جميع الذي لا يتفقون في الرأي مع ماجلان، قد ظلم هذا الرجل

المجرب، بادعائه أن عوامل وضيعة دفعته إلى إبداء هذا الرأي. فإن الاقتراح الذي تقدم به استيفاو غوميز صائب، من الناحية المنطقية. ولو عمل به، لأدى إلى إنقاذ حياة ماجلان نفسه، وحياة نحو مائتين من رفاقه.

ولكن القائد لا تهمه حياته الفانية، بل عمله الخالد! والعمل الجريء كثيراً ما يكون غير معقول!... وقد تكلم ماجلان مرة أخرى ليرد على استيفاو غوميز: نعم، إن هناك صعوبات كبيرة يجب قهرها، وقد يقاسي البحارة الجوع وغيره من ألوان الشقاء. ولكنه يرى مواصلة السير وبلوغ البلاد التي وعد الإمبراطور أن يفتحها باسمه، حتى لو اضطر البحارة إلى أن يأكلوا الجلود التي تكسو عوارض الصواري في سفنهم. وكانت إشارة ماجلان إلى أكل الجلود أشبه بنبوءة عما حدث بعد ذلك!

وانتهت هذه المناقشة بالدعوة إلى استئناف المغامرة. وأذيع من سفينة إلى سفينة قرار ماجلان بوجوب مواصلة السير إلى الأمام. ولكن ماجلان يأمر الربابنة بأن يخفوا عن البحارة ما آلت إليه حالة التموين، وألا تصدر عن أحدهم إشارة بسيطة إلى ذلك، كيلا يدفع حياته ثمناً لها.

* * *

تلقى الربابنة في صمت أوامر ماجلان، وأصبح في وسع السفينتين اللتين عهد إليهما بكشف القناة من الجنوب الشرقي، أن تقلعا، وبعد قليل كانت السفينتان تختفيان في منعرجات الخلجان: السفينة «سان أنطونيو» بقيادة ألفارو دي مسكيتا، والسفينة «كونسبسيون» بقيادة سراو.

أما بحارة السفينتين الباقيتين، فإنهم يمضون الوقت في راحة. فسفينة القيادة «ترينيداد» والسفينة «فكتوريا» ترسوان الآن عند مصب نهر السردين. وبدل أن يذهب ماجلان نفسه لاستكشاف القناة من ناحية الجنوب الغربي، فإنه عمد إلى إرسال زورق يحمل بعض البحارة وكمية من المؤن. وعلى هؤلاء البحارة أن يعودوا بعد ثلاثة أيام، فيبقى أمامهم يومان للراحة... إذ أن السفينتين الأخريين لن تعودا إلا بعد عودة الزورق بيومين أيضاً. وماجلان ورجاله لم يذوقوا مثل هذه الراحة من زمن بعيد. والمناظر التي تحيط بهم تتغير كثيراً في الأيام الأخيرة، كلما تقدموا نحو الغرب. فقد بدأت المروج الخضراء والغابات تحل محل الصخور الجرداء، والهواء يلين. وظهرت عيون مياه عذبة، طار لها البحارة فرحاً لأنهم لم يذوقوا منذ أسابيع غير مياه البراميل الكريهة.

إنهم يستلقون بالليل على العشب الأخضر. ويشاهدون الأسماك الطائرة في حركاتها العجيبة، أو يلقون عليها شباكهم ليصطادوها. وهم يجدون في ذلك المكان من المواد الغذائية، ما يدفعهم إلى الأكل من جديد حتى الشبع. والطبيعة حولهم جميلة حتى أن بيجافيتا قد دون في مذكراته هذه العبارة: «أظن أنه لا يوجد في الدنيا مكان أجمل من هذا المكان»!

ولكن هذه السعادة المتواضعة، المستمدة من نعمة الراحة والكسل، لا تعد شيئاً بالنسبة إلى السعادة التي تملأ الآن نفس ماجلان. فقد عاد الزورق الكشاف بعد ثلاثة أيام. وفي هذه المرة أيضاً يشير البحارة بأيديهم كما فعل زملاؤهم يوم عيد القديسين، بعد أن وجدوا مدخل القناة. غير أن النبأ الذي يحمله بحارة الزورق أهم ألف مرة من النبأ السابق: فقد وجدوا في النهاية مخرج القناة! نعم، لقد رأوا بأعينهم البحر الذي ينفذ المم إليه، بحر الجنوب، المحيط العظيم المجهول.

«تالاسا!... تالاسا!...» هذه الكلمة ومعناها البحر التي كان قدماء اليونانيين يحيون بها أرض الوطن، بعد عودتهم من سفر طويل، ينطلق الآن من الحناجر ولكن بلغة أخرى.

إن هذه اللحظة لأعظم لحظة مر بها ماجلان... لحظة ينعم فيها الإنسان بفرح غير محدود لا يذوقه إلا مرة واحدة في حياته. فقد تحقق حلم ماجلان الآن، وبر بالوعد الذي قطعه للإمبراطور. نعم، هذا الحلم الذي اكتفى آلاف من الناس من قبله بمجرد التفكير فيه، جعله هو حقيقة ملموسة: لقد وجد الطريق المؤدية إلى البحر الآخر. وهذه الساعة الفريدة في التاريخ تبرر كل ما فعله ماجلان في حياته، التي طبعها الخلود!

وفجأة، حدث شيء لم يكن أحد ينتظره من هذا الرجل الحديدي. فقد غلبه التأثر وخنقته العبرات، وهو الرجل الذي لم يفضح وجهه قط شعوره: إن عينيه تترقرق فيهما الدموع الحارة، التي تنهمر الآن على خديه وتتخلل لحيته الكثيفة... إن ماجلان يبكي من الفرح!

* * *

شعر ماجلان خلال لحظة قصيرة من حياته العابسة المفعمة بالجهد، بأعظم فرح يمكن أن يتاح للإنسان المنشئ: الفرح الذي يبعثه تحقيق حلم طالما شقي في سبيله، ولكن القدر قد حكم على هذا الرجل ألا يذوق لحظة من السعادة حتى يدفع ثمنها

غالياً. وكل عمل من أعماله الناجحة تصحبه خيبه أمل مؤلمة. هو يرى السعادة ولكنه لا يمسك بها. وحتى تلك اللحظة التي أشرنا إليها، لحظة الفرح القصيرة، أغنى لحظات حياته على الإطلاق ـ هذه اللحظة تنقضي دون أن يمسك بها!

فأين السفينتان الأخريان؟... ولماذا تأخرتا في العودة؟... الآن وقد وجد الزورق منفذ الممر إلى البحر، فإن كل بحث آخر أصبح لغواً ومضيعة للوقت... آه... لتعد السفينتان «سان أنطونيو ـ وكونسبسيون» ولتعرفا النبأ السعيد!...

بدأ ماجلان يقلق، ووقف يحدق في الجهة التي سارت فيها السفينتان. وقد انقضت المدة المحددة للعودة، ومرت الأيام الخمسة، والسفينتان لم تعودا. فهل وقعت كارثة؟ وهل ضلت السفينتان الطريق؟... إن ماجلان لا يقوى على الانتظار أكثر مما انتظر. وها هو يصدر أوامره بالإقلاع للبحث عن السفينتين الغائبتين.

ولكن الأفق خال، لا تبدو فيه إشارة، ولا يظهر أثر.

وأخيراً، في اليوم التالي، بدت قلوع سفينة عن بعد... إنها السفينة كونسبسيون التي يقودها سراو الوفي... ولكن أين السفينة الثانية؟ سئل سراو، فلم يحر جواباً. وكل ما يعرفه أن السفينة «سان أنطونيو» قد سبقته منذ اليوم الأول، وأنه لم يرها بعد ذلك.

لم يعتقد ماجلان بادئ الأمر أن هناك حادثاً سيئاً. فالسفينة «سان أنطونيو» قد تكون تائهة أو لعلها أساءت فهم أوامره. ولهذا، فإنه يرسل سفنه في جهات مختلفة، للبحث في جميع أركان القناة الكبرى. ويأمر بإشعال المصابيح، ورفع حروف كبيرة بجانب الأعلام تستدل بها السفينة إذا ضلت الطريق. وبدأ يشعر بأن هناك شيئاً خطيراً قد حدث. فإما أن تكون السفينة «سان أنطونيو» بالساحل وضاعت بمن فيها، وهذا لا يستبعد لأن الرياح كانت في تلك الأيام ساكنة أكثر مما يجب. وإما ـ وهذا أقرب إلى الاحتمال ـ أن يكون استيفاو غوميز، المكلف بقيادة سير السفينة «سان أنطونيو» والذي صرح أخيراً بوجوب العودة في الحال إلى إسبانيا، قد نجح في فرض وجهة نظره على البحارة، فانفصل بالسفينة عن القافلة...

إن ماجلان يجهل ما حدث، ولكنه يدرك شيئاً واحداً، هو أن أكبر سفنه قد اختفت. ولكن أين هي؟ ففي هذا التيه الشاسع، لا يستطيع أحد أن ينبئه إذا كانت السفينة في قرار البحر، أم فرت سالكة طريقها إلى إسبانيا. فكواكب السماء وحدها قد شهدت ذلك الحادث المجهول. وهي وحدها تعرف الطريق التي سلكتها السفينة

«سان أنطونيو» وهي وحدها قادرة على الإجابة عن سؤاله... وهنا ندرك السبب الذي حفز ماجلان إلى دعوة الفلكي المنجم أندرس دي سان مرتان، الذي حل في القافلة مكان فاليرو، والذي يحسن وحده استطلاع الغيب في صفحة الفلك. وقد رجاه ماجلان أن يسأل النجوم عن مصير السفينة «سان أنطونيو». وصدق علم الفلك مرة أخرى، فإن الفلكي الطيب القلب، الذي يذكر تصرف استيفاو غوميز في المجلس الذي عقده ماجلان من قبل، يعلن الآن أن السفينة قد فرت، وأن ربانها أسير عليها. وكان هذا مطابقاً للواقع.

* * *

وجد ماجلان نفسه مضطراً مرة أخرى - وستكون الأخيرة - لأن يتخذ قراراً سريعاً. فقد فرح قبل الأوان، وما يحدث له الآن يشبه ما سوف يحدث فيما بعد لفرنسيس دراك، وهذا أيضاً من غرائب التشابه بين أول طواف حول الأرض، والطواف الثاني. فقد تخلت إحدى سفن فرنسيس دراك عنه في أثناء الليل. وها هو ذا ماجلان يرى أحد مواطنيه، ورجلاً من دمه، يلعب من ورائه لعبة ماكرة، في الوقت الذي يقف فيه على عتبة النصر. فإن السفينة «سان أنطونيو» تحمل على ظهرها أوفر كمية من المؤن وأجودها، فضلاً عن أن الانتظار والبحث قد ضيعا على السفن ستة أيام. وإذا كان الانطلاق في المحيط، قبل ذلك بأسبوع، وفي ظروف أكثر ملاءمة من هذه، قد عده ماجلان مغامرة خطيرة، فإن مثل هذا العمل الآن، بعد فرار السفينة «سان أنطونيو»، يعد انتحاراً لاشك فيه.

ومرة أخرى، انتقل ماجلان من حالة الوثوق الأكيد إلى حالة الارتباك الشديد. ولسنا في حاجة إلى شهادة رفيقه باروس، الذي كتب يقول: «إن ماجلان كان حائراً إلى حد لم يعد معه قادراً على اتخاذ أي قرار»، لكي تدرك مدى القلق الذي استولى على الرجل، وظهر في الأمر الذي أصدره فوراً إلى جميع ضباط سفنه، وهو الأمر الوحيد الذي وصل إلينا مكتوباً. فللمرة الثانية خلال بضعة أيام، يطلب ماجلان من الضباط أن يفضوا إليه برأيهم: هل يجب مواصلة السفر إلى الأمام، أم العودة إلى الوراء؟ ولكنه في هذه المرة يأمرهم بأن يردوا على سؤاله كتابة، لأنه يريد دليلاً مكتوباً يثبت به أنه أخذ رأي الربابنة. وهو يعلم جيداً - وسوف تثبت الحوادث ذلك - أن بحارة السفينة «سان أنطونيو» المتمردين سيوجهون إليه التهم، كيلا يتهموا فيما بعد بالعصيان. ولا يشك في أنهم سيتهمونه بأنه يعمد إلى الإرهاب، وأنهم سيثيرون

الشعور الوطني في نفوس الإسبانيين، بأن يرووا لهم كيف كان ذلك الغريب البرتغالي يقسو عليهم ويضطهدهم، ويكبل بالحديد موظفي الملك، ويعدم نبلاء إسبانيين ويمزق جثثهم وينزلهم إلى البر على ساحل أجرد، كل ذلك ليضع السفن في قبضة البرتغاليين، خلافاً لأوامر الملك. وأراد ماجلان أن ينفي هذه التهمة التي ستوجه إليه حتماً بأنه منع ضباطه بقسوة من إبداء رأيهم، فكتب هذا المحضر العجيب، الذي يشبه مرافعة دفاع أكثر مما يشبه طلباً موجهاً إلى رفاقه. والمحضر يبدأ بهذه العبارات: «كتب في قناة جميع القديسين، تجاه نهر السردين، في ٢١ نوفمبر، عند خط العرض ٢٣ جنوب خط الاستواء: أنا، فرناندو ماجلان، الحائز لرتبة فارس من وسام سنتياغو، والقائد العام لهذه العمارة... علمت أنكم ترون مواصلة السفر قراراً متهوراً، في هذا الفصل من السنة. ولما كنت رجلاً لم يهمل أبداً رأي الآخرين ونصيحتهم، بل سعى دائماً إلى المناقشة وتدبير الأمور بالتعاون معكم...».

ولابد أن يكون الضباط قد ابتسموا وهم يقرأون هذا الوصف الغريب الذي كتبه ماجلان عن نفسه، إذ إن ما يميز طبعه على الخصوص هو تحكمه في الغير. والضباط لم ينسوا بعد كيف أنه أسكت كل نقد قبل ذلك التاريخ بتسعة أشهر. وماجلان يدرك ذلك. ولهذا فهو يكتب ما يلي: «ليس لأحد أن يخشى من التعبير عن رأيه... فإن الواجب يقضي عليكم أن تفصحوا إلي بدون خوف عما تعتقدون فيما يتعلق بسلامة السفن. وإذا لم تفعلوا فإنكم تتصرفون خلافاً لقسمكم وواجبكم».

إذن، فعلى كل واحد منهم أن يقول إذا كان يجب مواصلة السفر أو الرجوع إلى إسبانيا، وأن يدون الأسباب كتابة. ولكن الثقة التي فقدت خلال بضعة أشهر، لا يمكن استعادتها في ساعة واحدة. والخوف الذي لا يزال الضباط يشعرون به يمنعهم من إبداء آرائهم بحرية تامة. والرد الوحيد الذي وصل إلينا، هو رد أندرس دي سان مرتان، يدل إلى أي حد كان الضباط قليلي الاستعداد لمشاركة ماجلان في المسؤولية، في ساعة أصبحت فيها هذه المسؤولية عظيمة هائلة.

أما الفلكي فإنه يتكلم بلغة مهنته، وهي لغة مبهمة ذات معان مزدوجة، ويلجأ بلباقة تارة إلى عبارة «هذا من ناحية» وتارة إلى عبارة «هذا من ناحية أخرى!» وبالرغم من أنه يشك في إمكان الوصول إلى جزر ملوك بطريق قناة القديسين هذه، فإنه يرى مواصلة السفر لأنهم أصبحوا «في قلب الربيع». ولكن، يجب ألا تبتعد السفن كثيراً، وأن تعود في منتصف شهر يناير، لأن البحارة متعبون. وقد يكون

الأوفق أن تسير السفن لا من جهة الغرب، بل من جهة الشرق. وعلى كل حال، فليصنع ماجلان ما يراه مناسباً، وليرشده الله إلى الطريق.

والمظنون أن الضباط الآخرين قد عبروا عن آرائهم بهذه الطريقة الملتوية.

وفي الواقع، إن ماجلان لم يتوجه إلى ضباطه بالسؤال لكي يتلقى منهم الرد، بل ليتمكن في المستقبل من القول بأنه استشارهم. وهو يعلم أنه تقدم إلى حد لم يعد يستطيع معه العودة إلى الوراء. فلا يسعه أن يرجع إلا منتصراً، وإلا فهو هالك لا محالة. وحتى لو تنبأ له الفلكي المنجم بأنه ذاهب إلى الموت، لوجب عليه أن يواصل السير في طريقه المجيدة.

ففي ٢٢ نوفمبر ١٥٢٠، أصدر ماجلان أمره بالإقلاع من مرفأ نهر السردين. وبعد بضعة أيام، كانت السفن قد اجتازت «مضيق ماجلان» - إذ إن هذا هو الاسم الذي سيعرف به في المستقبل - من أوله إلى آخره. وعند مخرج المضيق، وقع نظر ماجلان، وقلبه يخفق من التأثر خفقاناً لا حد له، على مياه البحر الذي لم تمخر عبابه من قبل سفينة أوروبية، وهو يمتد خلف نتوء أطلق عليه ماجلان اسم «كابو ديسيادو»، أي «رأس الشوق».

ويا له من منظر مؤثر!... ولابد أن تكون هناك، إلى الغرب، وراء الأفق اللانهائي، تلك الجزر المرموقة، جزر التوابل، جزر الخيرات، والصين، واليابان، والهند، وهناك، إلى مسافة بعيدة جداً، الوطن، إسبانيا، أوروبا!

والآن، وقفة أخيرة للراحة قبل الانطلاق الحاسم في المحيط الغامض. وفي ٢٨ نوفمبر ١٥٢٠، رفعت المراسي والأعلام. وأطلقت السفن الثلاث مدافعها تحية للبحر المجهول، أشبه بتحية الخصم العنيد الذي يدعى إلى المبارزة حتى الموت!

ماجلان يكتشف مملكته

نوفمبر ١٥٢٠ - ابريل ١٥٢١

إن عبور المحيط المجهول للمرة الأولى عمل من أعظم الأعمال التي عرفتها البشرية. وقد وصف مكسيميليان ترنسيلفانوس هذا المحيط فقال: «إنه بحر واسع إلى حد عسير على عقل الإنسان أن يتصوره!» فقد سبق أن عبر كريستوف كولومب المحيط الأطلنطي، فعد ذلك في حينه نصراً لا يحرزه إلا ذو شجاعة عظيمة. ومع ذلك، فإن عمل كولومب لا يمكن أن يقاس بالنصر الذي أحرزه ماجلان على عناصر الطبيعة، مقابل ألوان من الحرمان لا توصف.

إن الرحلة التي قام بها كريستوف كولومب سنة ١٤٩٢، على ثلاث سفن جديدة وافرة المؤن، لم تستغرق أكثر من ثلاثة وثلاثين يوماً. وقبل أن يبلغ الشاطئ بأسبوع، دلته الأعشاب والأخشاب الغريبة التي جرفها البحر، والطيور الحائمة حول سفنه، على أن الأرض باتت على مقربة منه، وكان بحارته في راحة تامة. وأما المؤن، فكانت متوافرة في سفنه حتى ليستطيع لو أراد أن يعود أدراجه دون أن يصنع شيئاً. وكنت الأرض المجهولة أمامه وأرض الوطن خلفه وفي وسعه أن يعود إذا فشل.

أما ماجلان، فإنه على عكس ذلك ينطلق في عالم مجهول تماماً. وهو لا يقلع بسفنه من ميناء أوروبي يعرفه، بل من بقعة غريبة موحشة، أي من أرض باتاجونيا. ورجاله منهكون، فقد قاسوا آلام الجوع وأنواعاً لا تحصى من الحرمان. وهذه الآلام تواكبهم في بقية رحلتهم وتهدد حياتهم. وثيابهم بالية، وحبال سفنهم وقلوعها بالية أيضاً. وقد مرت أسابيع وشهور لم يقع نظرهم فيها على وجه إنسان، ولم يتناولوا

طعاماً طازجاً، وهم في سرهم يحسدون رفاقهم الذين فاقوهم جرأة، ففروا في الوقت المناسب عائدين إلى إسبانيا، بدلاً من متابعة الرحلة وتعريض أنفسهم للهلاك في ذلك البحر الشاسع.

تلك هي الظروف التي سارت فيها السفن الثلاث عشرين يوماً ثم ثلاثين، وأربعين، وخمسين وستين يوماً، دون أن يلمحوا وراء الأفق ظل أرض، أو يبدو لهم ما يدل على أنهم يقتربون من الساحل.

ومضت أسابيع أخرى أيضاً، فصار المجموع ثلاثة أشهر أي أطول من المدة التي عبر فيها كولومب المحيط الأطلنطي ثلاث مرات. وطفقت سفن ماجلان تسير على غير هدى آلاف الساعات بعدما اختفى في الأفق رأس «كابو ديسيادو» منذ الثامن والعشرين من شهر نوفمبر. ولم تبق لخرائط ماجلان ومقاييسه أية قيمة. واتضح أن جميع المسافات التي دونها فاليرو خاطئة. وماجلان يعتقد أنه قد جاوز جزيرة سيبانغو واليابان من زمن بعيد. ومع ذلك فإنه لم يعبر بعد غير ثلث المحيط المجهول، الذي سماه بسبب انقطاع الرياح فيه: «المحيط الهادئ».

ولكن، ما أثقل هذا السكون، وما أفظع هذا الهدوء!... فإن البحر ما زال على زرقته ولألائه، والسماء ما برحت صافية محرقة، والهواء لا يحمل صوتاً ولا نأمة، والأفق ينفسح لهم كلما أوغلوا فيه. ولا يحيط بالسفن الصغيرة الثلاث غير الفضاء الأزرق، وهي وحدها النقط المتحركة وسط ذلك الجمود الرهيب.

والمؤن تنقص بصورة مخيفة، والمجاعة تتفاقم يوماً بعد يوم، والذي يوزعه الموظف المختص على البحارة كل يوم ليس طعاماً ولكنه أكوام من الأقذار، وقد نفد النبيذ من زمن، وهو الذي كان البحارة يرطبون به شفاههم ويبعثون به نشاطهم. والمياه العذبة المحفوظة في البراميل، فارت تحت نار الشمس التي لا ترحم، فانبعثت منها رائحة كريهة تضطر البحارة المساكين إلى سد أنوفهم بأصابعهم عندما يبللون شفاههم بقطرات منها. أما الخبز المجفف وهو مع السمك أساس غذائهم، فقد تحول إلى مسحوق قاتم قذر اختلط به الدود وأفسده براز الجرذان التي دفعها الجوع إلى السطو على البقية الباقية من الزاد. والبحارة يطاردون دائبين تلك الحيوانات الكريهة، لا ليتخلصوا منها بل ليأكلوها. والصياد الماهر الذي يظفر بفأر في يده، يبيعه بنصف دوكا ذهباً، فيأخذه المشتري السعيد ويلتهمه بشراهة. ويخترع البحارة ألوانا من الأطعمة ليخدعوا بها أمعاءهم الفارغة: فإنهم يخلطون بقايا الخبز المجفف

بنشارة الخشب ليضاعفوا حجم الجراية اليومية التافهة. وتفاقمت المجاعة حتى اضطر البحارة إلى التهام الجلود التي تكسو عوارض الصواري، كما تنبأ بذلك ماجلان نفسه.

وكتب بيجافيتا يقول: «لقد انتهى بنا الأمر، كيلا نموت من الجوع، إلى التهام قطع الجلد التي تكسو عوارض الصارية الكبيرة لتحمي الحبال من التمزق. وقطع الجلد هذه معرضة منذ سنة كاملة للمطر والشمس والريح، ولهذا أصبحت جافة فاضطررنا إلى وضعها في الماء لتلين ثم طبخناها على النار وأكلناها!».

ولا غرابة أن يعجز أولئك البحارة عن احتمال كل ذلك الحرمان. فقد ظهرت عليهم أعراض فساد الدم. وبدأت أسنانهم تقع، وامتلأت أفواههم بالقروح. وأصبحوا لا يقوون على ازدراد الطعام. ومات كثيرون منهم في عذاب أليم. وأما الذين لبثوا على قيد الحياة، فقد أنهك الجوع قواهم، وهم يتحركون في السفن متوكئين على عصيهم، ثم يستلقون قابعين في زوايا السفن!

مات في تلك المرحلة تسعة عشر بحاراً، أي عشر مجموع الرجال في السفن. ومات ذلك العملاق الباتاجوني، الذي كانوا قد أطلقوا عليه اسم «جوان جيجانتي» أي «العملاق جوان» والذي كانوا من قبل ينظرون إليه بإعجاب لأنه يلتهم نصف صندوق من الخبز المجفف، ويشرب جردلاً من الماء دفعة واحدة.

وعدد البحارة الأصحاء ينقص كل يوم. وقد كتب بيجافيتا، وكان صادقاً: «إن السفن لم يكن في وسعها، وفيها أمثال هؤلاء الرجال، أن تقاوم أول عاصفة تداهمها، فلو لم يكن الله والعذراء مريم قد أرادا لنا جواً هادئاً، لقضى الجوع علينا جميعاً في هذا البحر الواسع!».

* * *

تقدمت القافلة خلال الأسابيع والشهور في فضاء ذلك المحيط اللانهائي، متحملة أفظع ما يتخيله العقل من آلام حسية زادها شدة وقع على نفوس البحارة، ألم الخيبة، خيبة الأمل! فإن بحارة ماجلان كان يخدعهم السراب كأنهم ضاربون في الصحراء، فقد صاح البحار المراقب من برجه ذات صباح قائلاً إنه يلمح البر في الأفق. واندفع البحارة إلى ظهور السفن كالمجانين، حتى المرضى منهم قد نهضوا من فراشهم وجروا أنفسهم جراً ليروا...

حقاً، إنها جزيرة!

فأنزلت الزوارق في الحال إلى البحر. وراح البحارة يحلمون بالماء العذب الصافي، والراحة في ظلال الأشجار، ويأملون أن يطأوا الأرض اليابسة بأقدامهم!

ولكن، ما أشد خيبة الأمل!... فقد اتضح لهم وهم يقتربون من هذه الجزيرة، ومن غيرها فيما بعد، أنها ليست غير أكوام من الصخور الجرداء، لا يسكنها ولا يمكن أن يسكنها أحد. وقد سميت هذه الجزر: «أسلاس ديزافنتورادس» أي: «جزر التعاسة».

إذن، فما جدوى النزول هناك؟ إن ذلك ضياع عقيم للوقت الثمين!

فواصلت القافلة سيرها بكآبة وعناء، على سطح ذلك القفر الأزرق، إلى بعيد، إلى بعيد دائماً...

* * *

وأخيراً، في ٦ مارس سنة ١٥٢١ ـ أي بعد مرور مائة يوم على خروج السفن من مضيق ماجلان وانطلاقها في عرض البحر ـ سمع من جديد: «الأرض!... الأرض!...» وكان البحارة على آخر رمق. ولو مضى أيضاً يومان أو ثلاثة لما وجد الناس فيما بعد أثراً لذلك العمل العظيم، ولكانت السفن، التي تحولت إلى مقابر متحركة، قد اختفت بين العواصف، أو ارتطمت بالشاطئ وتحطمت!

إن في هذه الأرض سكاناً والحمد لله. وسيجد فيها البحارة ماء يروون به ظمأهم. وما كادت السفن تقترب من خليج على الشاطئ، حتى أسرعت نحوها زوارق ملونة صغيرة مارقة كالسهام، ناشرة قلوعها المصنوعة من أوراق النخيل المحبوك. وخرج منها ركابها الزنوج العراة وتسلقوا جوانب السفن خفافاً كالقرود. وبدأوا يستولون على كل شيء يقع تحت أيديهم، جهلاً منهم بكل قواعد اللياقة، وما مرت لحظات حتى كانت أشياء كثيرة قد اختفت، منها زورق السفينة «ترينيداد» الذي قطعت حباله وسرق. ولم يخطر ببال أولئك الزنوج أنهم أقدموا على عمل غير مشروع، بل كانوا يضحكون لأنهم حصلوا بسهولة على أشياء لم يروا مثلها من قبل. ثم عادوا إلى البر بأسلابهم مطمئنين، فإن الاستيلاء على تلك الأشياء يبدو للزنوج أمراً طبيعياً، كما إن الأسبانيين والبابا والإمبراطور رأوا إعلان ملكيتهم للجزر المجهولة بما فيها من سكان وحيوان، أمراً طبيعياً كذلك!

لكن ماجلان لا يسعه السكوت على تصرفات أولئك المتوحشين، ولا يمكن أن يترك لهم زورقه، الذي كلفه في أشبيلية أربعة آلاف مرافيدي، والذي له هنا، على

مسافة تقدر بآلاف الأميال، قيمة لا تقدر لأنه يتعذر إبدال زورق آخر به. ولهذا، فقد أرسل إلى البر في اليوم التالي أربعين بحاراً مسلحين ليعودوا بالزورق ويلقوا على السكان درساً قاسياً. فأضرم البحارة النار في بعض أكواخ الزنوج ولكنهم لم يشتبكوا معهم في قتال، فإن أبناء الطبيعة هؤلاء يجهلون فنون القتال، إلى حد أنهم كانوا يندهشون لسهام الإسبانيين، التي تنطلق من بعيد فتصيبهم وتسبب لهم ألماً شديداً. وقد تولاهم الذعر واليأس، فجعلوا ينزعون السهام من جراحهم الدامية ويفرون هاربين إلى الغابات.

والآن، أصبح في وسع الإسبانيين أن يحملوا الماء العذب لرفاقهم، وأن ينصرفوا إلى السلب والنهب. فراحوا ينهبون كل ما يجدونه في الأكواخ التي هجرها أصحابها: الدجاج والخنازير والفاكهة. وبعد أن انتهى الإسبانيون والسكان من النهب على ذلك النحو المتبادل، أراد الإسبانيون أن يصموا تلك الجزيرة بالعار الأبدي فأسموها «جزيرة اللصوص!».

ومهما يكن من أمر، فإن هذا النهب قد أنقذ الإسبانيين، فبعد أن تمتعوا بالراحة ثلاثة أيام، تناولوا فيها طعاماً طازجاً، وشربوا مياه العيون العذبة، استعاد معظمهم نشاطه. نعم إن بعض البحارة ماتوا فيما بعد من الانحلال، وبقي بعضهم يعاني آلام المرض والضعف. ولكن أقسى مراحل الشدة قد مرت. والسفن الآن تواصل سفرها نحو الغرب بهمة جديدة.

في ١٧ مارس، أي بعد أسبوع آخر، ظهرت في الأفق جزيرة ثانية، ثم جزيرة ثالثة، فأدرك ماجلان أنه ورفاقه قد نجوا. وإذا صح تقديره، فإن هذه الجزر هي جزر ملوك التي يبحث عنها. فهو إذن قد بلغ هدفه المنشود.

غير أن رغبته الشديدة في معالجة المرضى من بحارته وإعادة النشاط والصحة إلى الضعفاء منهم، لا تدفعه إلى إطراح حذره المعتاد، وبدل أن ينزل في جزيرة «سولوان» وهي أكبر الجزر فإنه آثر أن يلقي مراسيه في الأخرى، التي سماها بيجافيتا في مذكراته «هومونو» لأنها خالية فهو يرغب في تجنب الاصطدام بالسكان، لأن حالة بحارته لا تسمح بذلك. فقبل أي تبادل أو أي قتال يجب أن يصبح البحارة قادرين على ذلك.

نقل المرضى إذن إلى البر، وقدمت لهم المياة العذبة فشربوا، وذبح أحد الخنازير التي سرقت من جزيرة اللصوص. وبعد ظهر اليوم التالي، اقترب زورق قادم من

الجزيرة يقل فريقاً من الزنوج المسالمين يحملون أثماراً يجهلها بيجافيتا ويخصها بوصف يدل على ما اعتراه من الدهشة حين رآها. وكانت تلك الأثمار الموز والجوز الهندي الذي يحوي جوفه سائلاً ينعش المرضى. وفي استطاعة الإسبانيين الآن أن يحصلوا ـ مقابل بضعة أجراس صغيرة وأدوات من الزجاج ـ على حاجتهم من السمك والدجاج ونبيذ البلح والليمون وجميع أنواع الخضر والفاكهة. وللمرة الأولى منذ بضعة أشهر، يتاح لهم أن يأكلوا ويشبعوا.

* * *

ظن ماجلان بادئ الأمر أنه بلغ الهدف الحقيقي من رحلته، أي الجزر المعهودة، الجزر التي تنتج التوابل، ولكنه يدرك الآن أن هذه الجزر التي بلغها ليست جزر ملوك، لأن عبده هنريك لا يفهم لغة هؤلاء الأقوام. إذن، فهذه بلا شك مجموعة أخرى من الجزر. واتضح من جديد أن تقدير ماجلان كان خاطئاً، لأنه سار في طريق تبعد عشر درجات شمالاً عن الطريق الحقيقي. ومرة أخرى يؤدي الخطأ إلى اكتشاف جديد، فقد وصل إلى مجموعة من الجزر لم يتصور أحد من الأوروبيين وجودها...

إنه يبحث عن جزر ملوك، فإذا به يكتشف جزر فيليبين[١]. ويضيف إلى أملاك الإمبراطور شارلكان أرضاً جديدة، ستحتفظ بها إسبانيا أطول مما احتفظت بالبلدان التي اكتشفها كريستوف كولومب وكورتيز وبيزارو.

وقد أنشأ ماجلان في الوقت ذاته إمبراطورية لنفسه! فإن العقد الذي يحمله ينص على أن له ولفاليرو، الحق في جزيرتين، إذا زاد عدد الجزر المكتشفة على ست. وهكذا، خلال أربع وعشرين ساعة، أصبح الرجل الذي كان بالأمس مغامراً فقيراً يشرف على الهاوية، حاكماً على أرض هي ملكه الخاص عدا الفوائد الأخرى التي تجعله من أعظم أهل الأرض ثراء.

ما أعجب هذا الانقلاب الفجائي في عجلة الحظ، بعد تلك الشهور الكئيبة المضنية!... إن الثقة بالنصر تعيد إلى المرضى نشاطهم وعافيتهم بقدر ما يعيدهما الغذاء الوافر الطازج الصحي، الذي يحمله الآن كل يوم سكان جزيرة سولوان...

---

(١) جزر « فيليبين » مجموعة من جزر الملايو ، في بحر الصين . استعمرتها إسبانيا منذ سنة ١٥٢٧ ، وثار سكانها في سنة ١٨٩٦ واستنجدوا بالولايات المتحدة الأمريكية فأنجدتهم ونشبت الحرب الإسبانية الأمريكية التي انتهت بتنازل إسبانيا عن جزر الفيليبين للولايات المتحدة في سنة ١٨٩٨ . وفي سنة ١٩٤٦ أعلنت أمريكا استقلال الفيليبين . وقد أطلق عليها اسم « فيليبين » تكريماً لفيليب ابن شارلكان .

وبعد تسعة أيام من الراحة التامة، على ذلك الساحل الدافئ، استعاد معظم البحارة صحتهم، وجعل ماجلان يتأهب لاستكشاف جزيرة كبيرة واقعة بالقرب من جزيرة ماساوا. ولكن حادثاً مزعجاً أوشك أن يعكر عليه فرحه في اللحظة الأخيرة. فإن صديقه بيجافيتا كان ذات يوم منهمكاً في اصطياد السمك بصنارته، فسقط في البحر دون أن ينتبه إليه أحد. ولما كان مؤرخ هذه الرحلة الأولى حول الأرض لا يجيد السباحة، فقد أوشك أن يغرق لو لم يتمكن في النهاية من الإمساك بأحد الحبال. وسمع البحارة صراخه، فأسرعوا إلى انتشال المؤرخ الجليل الشأن ورفعوه إلى ظهر السفينة!

وفي هذه المرة، نشر البحارة قلوعهم والفرح يملأ قلوبهم. فالجميع يعلمون الآن أنهم وصلوا إلى أطراف المحيط الشاسع، وأنهم خرجوا من ذلك الفضاء الموحش المميت. ولم يبق أمامهم غير ساعات معدودة، أو أيام قلائل يقضونها في البحر... فها هم يرون سواحل جزر جديدة إلى اليمين وإلى اليسار. وبعد أربعة أيام، أي في اليوم الثامن والعشرين من شهر مارس، ألقت السفن مراسيها أمام ماساوا، قبل أن تقفز قفزتها الأخيرة نحو الهدف النهائي الذي تتوق إليه!

* * *

وفي ماساوا، تلك الجزيرة الصغيرة من جزر فيليبين، التي لا ترى على الخريطة إلا بالمنظار المكبر، مرت بماجلان أيضاً لحظة أخرى من لحظات حياته الرائعة. فما كادت السفن تقترب ناشرة قلوعها حتى تجمع السكان فرحين متسائلين، في انتظار نزول الأغراب الوافدين. ولكن ماجلان أرسل عبده هنريك، على سبيل الاحتياط، كوسيط بينه وبين القوم، على اعتبار أنهم سيثقون برجل من جلدتهم أكثر مما يثقون بجماعة من البيض الملتحين، المرتدين ثياباً غريبة، والمدججين بالسلاح.

وحدثت المعجزة فعلاً!... فقد أحاط السكان بهنريك، وهم نصف عراة، يصيحون ويشيرون بأيديهم، وفجأة، جمد العبد في مكانه فقد طرقت أذنيه بضع كلمات من لغتهم. وفهم ما يقولونه له، وما يطلبون منه. إن هذا الرجل الذي انتزع من وطنه منذ أعوام، يسمع الآن كلمات من لغة قومه. وإنها لساعة لا تنسى! فللمرة الأولى في التاريخ، يعود رجل إلى المكان الذي فارقه، بعد أن يكون قد طاف حول العالم! وماذا يهم أن يكون ذلك الرجل عبداً وضيعاً؟ فالعظمة ليست كامنة في الشخص بل في المصير الذي تريده له الأقدار. وهذا العبد الذي لا نعرف عنه غير

الاسم الذي أطلقه عليه ماجلان بعد تنصيره: «هنريك». هذا الرجل الذي انتزع من جزيرته، وسيق إلى أوروبا، فبلغ لشبونة ماراً بالهند وإفريقية، ثم عاد ماراً بالبرازيل وباتاجونيا، إلى البقعة التي يتكلم فيها الناس لغة قومه، ذلك الرجل هو أول رجل عاش على هذه الأرض، وتم له الطواف حولها!

بعد رحلة موفقة استغرقت ثلاثة أيام، وصلت السفن.

في هذه الساعة، أدرك ماجلان أنه بلغ هدفه حقاً، فقد عاد من جهة الشرق إلى منطقة جزر الملايو، التي غادرها قبل ذلك اليوم باثنتي عشرة سنة، مبتعداً عنها إلى الغرب. وعما قليل، سيصل إلى ملقة، حيث اشترى عبده، وحيث يعود به سالماً. وسواء بلغ الجزر الموعودة غداً أو فيما بعد، وسواء أكان هو الذي سيبلغها أم غيره، فإن هذا لا يهمه بعد الآن، فالمهم قد تم وتحقق. وقد أثبت ماجلان أن السير في جهة واحدة، سواء كان ذلك من مشرق الشمس أو مغربها، لابد أن يفضي إلى المكان الذي بدأ منه. وما كان العلماء يتكهنون به منذ آلاف السنين. قد أصبح الآن، بفضل جلد رجل واحد، حقيقية أكيدة: إن الأرض مستديرة، وها هو ماجلان قد أثبت ذلك بصورة عملية.

* * *

إنها لأيام بديعة رائعة مفعمة بالسعادة، تلك التي قضاها البحارة في ماساوا!... ولكن حسبك الآن راحة يا ماجلان!... فرجالك قد استعادوا صحتهم، فلماذا إذن تطيل الانتظار؟ وما الفائدة من اكتشاف جزيرة صغيرة أخرى، ما دمت قد وفقت إلى أعظم اكتشاف في عصرك؟ فإلى جزر التوابل إذن حتى تكون قد أديت رسالتك كاملة. وبعد ذلك، عد إلى بلادك حيث تنتظرك زوجتك، لتقدم لك الابن الثاني الذي وضعته بعد رحيلك... عد إلى بلادك لتبدد ترهات العصاة الذين جبنوا وتخلوا عنك، ولتعلن على الملأ أي عمل عظيم قد تم بفضل شجاعة نبيل برتغالي، وجلد بحارة إسبانيين وإخلاصهم... لا تدع أصدقاءك ينتظرون أكثر مما انتظروا. ولا تترك الذين وثقوا بك عرضة للشك أكثر مما تركتهم... عد إلى إسبانيا يا ماجلان!

غير أن الشعور بالواجب في نظره أقوى من الرغبة في العودة إلى إسبانيا منتصراً، وتقبل شكر الإمبراطور. وكل ما صنعه ذلك الرجل حتى الآن قد بدأه بدقة، وواصله حتى النهاية بدقة. وفي هذه المرة أيضاً، لا يريد ماجلان أن يرحل عن جزر

فيليبين قبل أن يكون قد استكشفها من أقصاها إلى أقصاها، ووطد فيها سلطة إسبانيا. ولما كان عدد الرجال الذين معه لا يسمح بترك فريق منهم في هذه الجزر الجديدة كمندوبين ووكلاء، فإنه يريد أن يعقد معاهدات مع أقوى زعماء الجزر، كتلك المعاهدة التي عقدها مع الملك كلامبو، ويرفع على جميع جزر فيليبين العلم الإسباني!

وأجابه الملك كلامبو إلى طلبه، فدله على أكبر جزر فيليبين وهي جزيرة «سيبو»، ولما رجاه ماجلان أن يسمح له بنوتي من رعيته يصحبه إلى تلك الجزيرة، تمنى الملك بكل تواضع أن يكون له شرف الذهاب بنفسه لخدمته!...

وأقلعت السفن عن ذلك الساحل المبارك الذي أنقذها من الشقاء، وراحت تزحف على صفحة الماء الهادئة، بين تلك المجموعة من الجزر، في محاذاة الشاطئ، والسكان يلوحون بأيديهم للبحارة مرحبين.

النصر النهائي

٧ ابريل ١٥٢١ - ٢٧ ابريل ١٥٢١

وبعد رحلة موفقة استغرقت ثلاثة أيام وصلت السفن أمام جزيرة سيبو، في السابع من شهر أبريل سنة ١٥٢١ . وبدت قراها للأنظار دالة على أنها آهلة بالكثير من السكان. وقاد الملك كلامبو «الدليل» سفن القافلة نحو عاصمة الجزيرة. وأدرك ماجلان من أول نظرة ألقاها عليها أن سيد تلك الجزيرة لابد أن يكون أميراً جليل المقام، لأن الميناء كان مزدحماً بعدد كبير من المراكب الغريبة والقوارب الخاصة بالسكان. فعليه إذن أن يبدو في مظهر لائق. ولهذا، فقد أصدر أمره إلى السفن بإطلاق المدافع تحية للجزيرة، فاستولى الذعر على السكان وفروا صارخين هاربين إلى كل جهة.

ولكن ماجلان أوفد في الحال إلى البر ترجمانه الأمين هنريك، لينبئ الملك أن ليس في هذا أي مظهر من مظاهر العداء، بل بالعكس، فإن قائد الأسطول يقصد بهذا «الرعد» أن يعبر عن احترامه لملك سيبو العظيم، وهذا القائد نفسه، الذي يتكلم العبد باسمه، ليس إلا خادماً لأعظم عاهل في العالم. وقد صدع بأمر ذلك العاهل، فعبر المحيط الهائل قاصداً جزر التوابل. ولكنه علم في ماساوا أن ملكاً حكيماً مسالماً يجلس على العرش في سيبو، فأراد أن يحييه في طريقه. وأن قائد السفن التي تطلق الرعود لعلى استعداد لأن يعرض على ملك هذه الجزيرة بضائع ثمينة، لم ير أحد مثلها بعد، وأن يدخل معه في معاملات تجارية، ثم إنه لا ينوي الإقامة طويلاً في الجزيرة، بل سيرحل من دون أن يلحق به أقل ضرر، بعد أن يعقد معه معاهدة صداقة.

غيـر أن الملك، أو على الأصح الراجا «هومابون»، ليس ساذجاً كسكان جزيرة اللصوص أو عمالة باتاجونيا. فهو يعرف النقود وقيمتها، ولهذا فقد أنشأ في بلاده نظام رسم الدخول يتقاضاه من كل سفينة تلقي مراسيها في مينائه. وأثبت هذا الملك أنه من رجال الاقتصاد. سواء أكان ذلك من وحي نفسه أم بإرشاد غيره. ولم تؤثر فيه رعود المدافع ولا كلمات الترجمان المعسولة، بل قال لهنريك إنه لا يمنع سيده من دخول الميناء، ويرضى بارتياح أن ينشأ علاقات تجارية معه إجابة لطلبه، ولكن يجب عليه قبل كل شيء أن يدفع رسم الدخول. وإذا كان الربان الغريب العظيم يريد الانصراف إلى التجارة هنا، فيجب عليه أن يحترم أولاً العادات المرعية.

وبديهي أن لا يرضى ماجلان أبداً ـ وهو قائد عمارة ملكية، يحمل وسام سنتياغو برتبة فارس ـ أن يدفع رسماً لهذا الملك الصغير في جزيرته. وإذا فعل هذا، فإنه يعترف ضمناً باستقلال بلد تعده إسبانيا منذ الآن، وبموجب المرسوم البابوي، ملكاً لها. وهنريك نفسه يفهم هذا. ولهذا ألح على الراجا بأن يتغاضى في هذه الحالة الخاصة عن المطالبة بالرسم، وأن لا يثير العداء بينه وبين سيد البروق والرعود. ولكن الراجا رد قائلاً إنه يأسف لأنه لا يستطيع تغيير العادات المرعية: فالنقود أولاً، ثم الصداقة بعدها. ولابد من الدفع كما يفعل الآخرون. وإثباتاً لذلك، أرسل الملك في طلب تاجر مغربي مستشهداً به، فإن هذا التاجر قادم في مركب من بلاد سيام، وقد دفع الرسم بلا احتجاج.

وما إن أقبل التاجر حتى علا وجهه الشحوب. فقد أدرك الحقيقة من أول نظرة ألقاها على السفن الكبيرة التي رسمت على قلوعها المنشورة شارة صليب سنتياغو. فإنها حقاً لكارثة، أن يكون أولئك الغربيون قد اكتشفوا هذا الركن الخفي من الشرق، حيث يمارس التجار أعمالهم بدون أن يضايقهم أولئك الأغراب!... إنهم إذن هنا، بمدافعهم وسهامهم... هؤلاء اللصوص، هؤلاء القتلة!... لقد انتهى عهد الأعمال السلمية، وانتهى عهد الربح الهادئ!

تقدم التاجر من الملك وهمس في أذنه أن يكون على حذر وأن لا يثير الخصام بينه وبين الضيوف المزعجين... فهؤلاء أنفسهم هم الذين نهبوا كاليكوت والهند وملقة واحتلوها ـ وهنا يخلط التاجر بين الإسبانيين والبرتغاليين ـ وليس في وسع أحد أن يقاوم هؤلاء الشياطين البيض.

وكان لتحذير التاجر المغربي وقع شديد في نفس ملك سيبو. فقد تهيب الرجل الموقف وتنازل عن الرسم المفروض. وللدلالة على نواياه الحسنة، دعا رسل ماجلان

إلى مأدبة فخمة، ولمس الغزاة الفاتحون دليلاً جديداً على أنهم أصبحوا على مقربة من الهدف الأخير: فإن الطعام لم يقدم لهم في أطباق من قشر الشجر أو الخشب، بل في أوان من الصيني، جيء بها مباشرة من الصين - التي سماها الرحالة ماركوبولو[1] في كتابه: «كاتهاي».

وأعلن ملك سيبو استعداده لعقد معاهدة تحالف أبدية مع الإمبراطور العظيم شارلكان. وقد احترم ماجلان نصوص هذه المعاهدة بدقة تامة. فإن هذا المكتشف أرق شعوراً من سواه، وأبعد نظراً منهم، ولا يرمي إلا إلى الفتح السلمي، بخلاف كورتيز وبيزارو، اللذين كانا يطلقان جنودهما القساة، ليذبحوا الشعوب، ويستعبدوها بلا شفقة وفي أقصى سرعة.

نعم، إن طباعه جافة، وهو يفرض في سفنه نظاماً حديدياً، وقد أثبت تصرفه تجاه العصاة أنه لا يعرف الشفقة ولا يقف في معاقبة المذنبين عند حد. ولكن يجب أن نعترف بأن هذا الرجل القاسي لم يكن سفاكاً للدماء. ولا يمكن أن تلصق به أية جريمة كتلك الجرائم الوحشية التي تلطخ إلى الأبد ذكرى كورتيز وبيزارو. ولا يمكن أن يؤخذ عليه أنه حنث مرة واحدة بالعهد، كما فعل أولئك الفاتحون، اعتقاداً منهم أن ذلك مسموح به لهم تجاه «الوثنيين».

وفي أثناء التبادل التجاري، استرعى انتباه سكان الجزيرة بنوع خاص منظر الحديد، ذلك المعدن القاسي، الذي تصنع منه السيوف والرماح والفؤوس. وأصبح الذهب ذلك المعدن الرقيق الأصفر، أقل قيمة من الحديد في نظرهم، ولذلك فهم يبذلون خمس عشرة ليبرة من الذهب، مقابل أربع عشرة ليبرة من الحديد. ولقي ماجلان صعوبة عظيمة في منع رجاله من التنازل عن ثيابهم وكل ما يملكون نظير الذهب الذي يدفعه أهل الجزيرة لكيلا يدرك السكان قيمة هذا المعدن الحقيقية، وعندئذ قد يرفعون سعره. وماجلان يريد الاحتفاظ بالفائدة التي يجنيها من جهلهم قيمة الذهب، كما أنه يسهر بيقظة على الموازين التي يزنه بها أهل الجزيرة والملاحون.

ولم يحدث في التاريخ أن تم تحقيق مشروع رائع كمشروع ماجلان، وكلل

---

(١) ماركوبولو ، رحالة إيطالي . عبر القارة الأسيوية كلها وعاد بطريق جزر الملايو . وروى رحلته في كتاب سماه ، « كتاب ماركوبولو » . يحوي كثيراً من المعلومات القيمة عن الشرق في ذلك العهد . وقد ولد ماركوبولو في سنة ١٢٥١ ومات في سنة ١٣٢٣ .

بالنجاح في النهاية بمثل هذه الروعة... وقد أصبحت جميع أحلامه الآن حقائق ملموسة... فقد وجد الممر المؤدي إلى طرفي العالم، وضم إلى التاج الإسباني جزراً جديدة ذات ثروة عظيمة... وحمل كثيرين من سكان الجزر على ترك عبادة الأوثان... بدون أن يسفك قطرة من الدم. فقد وضع ثقته بالله، فأخذ الله بيده وأنقذه من أخطار لم يتعرض رجل لمثلها. ومنذ هذا اليوم، جعل ماجلان يشعر بأنه في مأمن من كل فشل. فأي عمل يمكن أن يخيفه في المستقبل، بعد تلك الصعاب التي تغلب عليها؟ ومن يستطيع، بعد هذا النصر المبين، أن يعرض عمله للفشل!

كلا، لم يعد في الدنيا شيء يعجز عن الحصول عليه!... وهذا الاعتقاد هو الذي أدى إلى هلاكه!

* * *

لقد كسب ماجلان إمبراطورية جديدة للتاج الإسباني. ولكن، كيف السبيل إلى المحافظة على هذه الإمبراطورية؟ إنه لا يستطيع البقاء أكثر من هذه المدة في جزيرة سيبو. ولا يستطيع أن يخضع الجزر الأخرى واحدة بعد واحدة. فهو إذن لا يرى غير وسيلة واحدة لتثبيت سلطة إسبانيا في جزر فيليبين بصورة دائمة، وهي أن يجعل من الملك هومابون ملكاً على جميع الجزر وأمرائها وزعمائها. فإن صفته كحليف لملك إسبانيا يجب أن ترفعه إلى مقام فوق مقام الزعماء الوطنيين الآخرين. وإذا كان ماجلان قد عرض على هومابون مساعدته العسكرية ضد من يجرؤ على الوقوف في وجهه كائناً من كان، فإنه لم يفعل ذلك عن تهور أو تسرع، بل عن حكمة ودهاء.

وشاءت المصادفات أن تسنح في ذلك الوقت فرصة مناسبة، فقد كان في جزيرة صغيرة تدعى «ماكتان» واقعة تجاه جزيرة سيبو، راجا يدعى «سيلابولابو»، رفض دائماً أن يعترف بسلطة ملك سيبو، وكرر الرفض أيضاً في هذه المرة، وأبى أن يعمل بإشارته، ومنع أصحاب الجزر الأخرى من إمداد ضيوف الملك هومابون بالمواد الغذائية. والحقيقة أن هذا العداء الذي أبداه سيلابولابو نحو الإسبانيين كان له ما يبرره، فقد اندفع بحارة ماجلان وراء النساء، بعد أن لبثوا طويلاً لا يرون امرأة. ونشبت ذات يوم مشادة بينهم وبين سكان الجزيرة الصغيرة الخاضعة لسيلابولابو، فأضرم البحارة النار في بعض الأكواخ...

لكن امتناع سيلابولابو عن امدادهم بالمواد الغذائية كان، في نظر ماجلان، فرصة مواتية، لكي يثبت لملك سيبو ولجميع الملوك الآخرين أية فوائد يجنيها الذين

ينضمون للإسبانيين، وأي أخطار يتعرض لها الذين يقاومونهم. فإن سلوكه حيال هذا العصيان سيكون وسيلة للإقناع أقوى من جميع الخطب...

لذلك عرض ماجلان على هومابون أن يلقي على خصمه درساً صغيراً، لكي يدين له بالطاعة، ولكن ملك سيبو لا يقابل هذا الاقتراح بالرضا وقد يكون ذلك بسبب ما يخشاه من ثورة القبائل عليه بعد رحيل الإسبانيين. وتدخل سراو وبربوسا فحذرا أمير البحر عواقب هذه الحملة التي لا تدعو إليها ضرورة.

غير أن ماجلان لا يفكر في خوض معركة حقيقية. وإنما يرمي إلى تثبيت سلطة الملك حليف إسبانيا على الزعماء المجاورين. فإذا خضع الزعيم المتمرد، فهذا خير له وللجميع. وماجلان يكره سفك الدم بغير مبرر. ولهذا فقد أوفد عبده هنريك والتاجر المغربي إلى سيلابولابو ليعرضا عليه الصلح. ولا يطلب منه غير شيء واحد: أن يعترف بتبعيته لملك سيبو، وبسلطة إسبانيا. فإذا قبل هذا، فإن الإسبانيين يعيشون معه في أمان ووفاق! وإذا رفض، فسوف يرى كيف تمزق رماحهم الأجسام!

وأجاب الراجا أن لدى رجاله أيضاً رماحاً. نعم إن هذه الرماح مصنوعة من القصب والخيزران، ولكن أسنتها قد عولجت بالنار فتصلبت، وسوف تتاح للإسبانيين الفرصة ليتثبتوا من ذلك. وأمام هذا الرد الوقح، لم يبق أمام ماجلان غير استعمال القوة.

* * *

وضع ملك سيبو تحت تصرفه ألف مقاتل، وفي وسعه من ناحيته أن يجمع مائة وخمسين رجلاً. فإذا نزل على رأس هذه القوة في جزيرة ماكتان الصغيرة، فلا شك أنه سيهزم الراجا المتمرد هزيمة ساحقة.

لقد أثبت منذ أيام لملك ماساوا ولملك سيبو، أن في إمكان عشرين رجلاً أن يهجموا بالرماح والخناجر على رجل مدرع دون أن يصيبوه بجرح واحد وهو اليوم يريد أن يكرر تلك المناورة على مرأى من الجميع لتأديب ذلك الزعيم العنيد. ومن أجل ذلك لم يصطحب ماجلان غير ستين رجلاً، وطلب من ملك سيبو أن لا ينزل إلى البر فهو ورجاله يجب أن لا يشتركوا في القتال بل يلبثوا بعيداً ليروا كيف يؤدب بضع عشرات من الإسبانيين جميع الزعماء والملوك في هذه الجزر!

فهل أخطأ ماجلان الحساب والتقدير، وهو الذي كان حتى هذه الساعة يحسب ويقدر بكل دقة؟ كلا... فإن هذه النسبة ـ نسبة ستين إسبانياً يلبسون الدروع ضد ألف رجل من العراة المسلحين برماح الخيزران ـ لم تكن نسبة غير معقولة. فقد فتح

كوريتز وبيزارو، على رأس أربعمائة أو خمسمائة رجل، ممالك بأسرها، وهزموا مئات الآلاف من سكان المكسيك وبيرو. ولم تكن حملة ماجلان هذه إذا قيست بما صادف كوريتز وبيزارو من صعوبات غير نزهة عسكرية بسيطة. ومما يثبت أن ماجلان لم يكن يظن أن هناك خطراً عليه، أنه في ذلك اليوم لم يأمر بإقامة الصلاة كعادته قبل الإقدام على عمل ذي أهمية تذكر.

* * *

وفي ليلة ٢٦ أبريل سنة ١٥٢١، ركب ماجلان البحر ومعه ستون رجلاً لعبور المضيق الصغير الفاصل بين الجزيرتين. وقد ادعى السكان أنهم رأوا في تلك الليلة طيراً غريباً يشبه الغراب على سطح أحد الأكواخ، وفجأة، وبدون أن يدرك أحد السبب، جعلت جميع الكلاب تنبح. ولم يكن الإسبانيون أقل اعتقاداً بالخرافات من السكان، فتولاهم الخوف.

ولكن، هل تجعل هذه الظواهر رجلاً من طينة ماجلان يتردد في مناوشة زعيم صغير من زعماء القبائل؟

نزل أربعون بحاراً مدرعين، إلى الماء يقودهم ماجلان الذي كتب عنه بيجافيتا في هذه المناسبة يقول: «إنه كان مثل الراعي الذي أبى أن يترك قطيعه». وبقي العشرون الآخرون في زوارقهم، وتقدم البحارة نحو الشاطئ، وكانت المياه تغمرهم إلى صدورهم، وإذا بهم يرون سكان الجزيرة في انتظارهم صائحين ملوحين بتروسهم، وبعد قليل اشتبك الفريقان في قتال.

ولابد أن يكون الوصف الذي كتبه بيجافيتا عن ذلك الحادث أقرب إلى الحقيقة، مما ورد في الوثائق الأخرى التي وصلت إلينا. فقد أصيب بيجافيتا بسهم جرحه جرحاً خطراً، وظل يقاتل حتى آخر لحظة إلى جانب رئيسه المحبوب، وهذا ما يقوله: «قفزنا إلى الماء فغمرنا حتى الصدور. واضطررنا إلى التقدم نحو الشاطئ مسافة تبلغ مرمى السهم مرتين. أما زوارقنا، فقد تعذر عليها أن تلحق بنا بسبب كثرة الصخور، وعلى الساحل، وجدنا ألفاً وخمسمائة من السكان، تفرقوا ثلاث فرق فاندفعوا نحونا وهم يرسلون صيحات مرعبة. وهاجمتنا فرقتان من الجانبين، والفرقة الثالثة من الأمام. فقسم رئيسنا البحارة قسمين. وأطلق زملاؤنا من الزوارق نيران بنادقهم مدة نصف ساعة، ولكن بدون فائدة، لأن القذائف المنطلقة من تلك المسافة كانت لا تخترق التروس ولا تحدث غير جراح خفيفة».

«ولما رأى القـائد هذا، صـاح بهم أن يتـوقـفـوا عن إطلاق النار حـرصـاً على الذخيرة. ولكن البحارة لم يعملوا بإشارته. وعندما أدرك السكان أن قذائفنا لا تلحق بهم ضرراً، توقفوا عن التقهقر. وراحوا يرسلون صيحاتهم المتزايدة، ويقفزون يميناً ويساراً لاجتناب قذائفنا، ثم اقتربوا منا شيئاً فشيئاً وهم يحمون أنفسهم بتروسهم، وأمطرونا بوابل من السهام، بحيث أصبحنا غير قادرين على الدفاع عن أنفسنا بسهولة».

«وأراد القائد أن يخيفهم فأرسل بضعة رجال أضرموا النار في أكواخهم. ولكن هذا ضاعف هياجهم. فأسرع كثير منهم ناحية النار التي كانت قد التهمت عشرين أو ثلاثين كوخا، وقتلوا اثنين من رجالنا. ووثب علينا الآخرون وقد تزايد غضبهم. ولما فطنوا إلى أن الدروع تحمي الجزء الأعلى من أجسامنا دون الجزء الأسفل، راحوا يتخذون أرجلنا هدفاً لسهامهم. وأصيب القائد بسهم سام في قدمه، فأصدر أمره بالارتداد خطوة خطوة. ولكن رجالنا ولوا الأدبار هاربين بسرعة، بحيث لم يبق معه غير سبعة أو ثمانية منا. وكانت سهام الأعداء تنهال علينا من كل جانب، ونحن عاجزون عن المقاومة. ولم يكن في وسع قاذفات القنابل في الزوارق إنجادنا لأن ضحولة المياه لم تكن تسمح للزوارق بالاقتراب من الشاطئ».

«وهكذا واصلنا الارتداد شيئاً فشيئاً ونحن نقاتل بلا وهن، ودخلنا في الماء فغمرنا إلى الركب، وأصبحنا على مرمى السهم من الشاطئ. ولكن السكان ظلوا يطاردوننا ويلتقطون السهام التي رشقونا بها من قبل ويستعملونها خمس مرات أو ستاً، وعرفوا القائد فصوبوا إليه سهامهم وتمكنوا مرتين من إسقاط الخوذة عن رأسه. ولكنه ظل مع بعض البحارة ثابتاً في مكانه كما يفعل الفارس الشهم. وهكذا واصلنا القتال أكثر من نصف ساعة أخرى، حتى أصيب القائد بسهم في وجهه. وفي ثورة غضبه، وثب على الرجل الذي رشقه بالسهم فطعنه بالرمح في صدره، ولكن الرمح ظل عالقاً في جسم القتيل. وحاول القائد حينئذ أن يستل سيفه من غمده، ولكنه لم يستطع، لأن سهماً آخر أصاب يده اليمنى فشل حركتها. ولما رأى الأعداء ذلك، تكاثروا عليه وضربه أحدهم بسيفه فأصابه بجرح خطر في فخذه الأيسر، فسقط على وجهه. ووثب عليه أهل الجزيرة، ومزقوا جسمه بالرماح. وهكذا قتلوا مرآتنا، ونبراسنا، وعزاءنا، ورئيسنا الأمين!».

* * *

على هذا النحو هلك أعظم ملاح في جميع عصور التاريخ، وهو يقاتل في مناوشة حمقاء مع جماعة من سكان الجزر المتوحشين. وذهب العبقري الذي أخضع عناصر الطبيعة، وتغلب على العواصف، وذلل جميع العقبات، قتله ملك صغير حقير من ملوك القبائل!

ولكن، ماذا يهم مصيره الشخصي، مادام قد انتصر وأدى رسالته؟ غير أنه من سخريات القدر أن تعقب مأساة موته مهزلة سمجة، فإن أولئك الإسبانيين، الذين كانوا بالأمس يحتقرون ذلك الزعيم الفيليبيني الصغير، يذلون أنفسهم اليوم، إلى حد أنهم لا يسرعون إلى إحضار النجدة، لانتزاع جثة قائدهم من قاتليه، بل يوفدون الوسطاء إلى سيلابولابو للتوسل إليه بأن يعيد إليهم الجثة مقابل كمية من القطع الزجاجية والمناديل الملونة! ولكن الراجا يرفض طلبهم بإباء، فإن جثة عدوه ليست للبيع. وهو يحتفظ بها كغنيمة من غنائم النصر. وجميع الناس يعرفون الآن، في الجزر جميعها، أن سيلابولابو العظيم قتل سيد البرق والرعد، وأن قتله كان هيناً كقتل عصفور!

ولا يعلم أحد ماذا حل بجثة ماجلان. وهكذا اختفى، بصورة غامضة، الرجل الذي انتزع من المحيط سره الغامض!

العودة بلا قائد

ابريل ١٥٢١ - سبتمبر ١٥٢١

فقد الإسبانيون ثمانية من رجالهم في هذا الحادث المحزن، ولم يكن ذلك في ذاته خطراً، ولكن الكارثة كانت وفاة قائدهم، فقد اختفت منذ لقي مصرعه الهالة التي كانت تجعل البيض في نظر سكان الجزر أشبه بالآلهة.

وقد كان هذا الاعتقاد يرعب الهنود الحمر ويشل حركاتهم. وحسبك شاهداً على أثر ذلك الاعتقاد فيهم، هذا الحادث الذي وقع لأحد الغزاة الإسبانيين، فقد غرق في النهر، فظل الهنود الحمر جامدين حول الجثة ثلاثة أيام. يخشون أن يلمسوها، خوفاً من أن يصحوا الإله الأبيض من سباته، ولم تعد إليهم شجاعتهم إلا بعد أن تطرق الانحلال إلى جثته، فاستعدوا للمقاومة.

فإذا ثبت أن واحداً من أولئك الآلهة البيض - يمكن قهره، وإذا انهزم مرة واحدة أولئك الذين لم يغلبوا قط، فإن العصا السحرية تنكسر، وخرافة الرجال الذين لا يقهرون تتبخر!

وهذا ما حدث في هذه المرة، فإن ملك سيبو كان قد خضع للإسبانيين بلا قيد ولا شرط. ورضي طائعاً باعتناق دينهم، اعتقاداً منه أن الإله الذي يعبدونه لابد أن يكون أقوى من الأصنام الخشبية التي كان الرجل وقومه يعبدونها. واعتقد أنه إذا عقد محالفة صداقة مع أولئك الرجال الذين هم فوق البشر، فسوف يصبح في الحال أوسع ملوك الجزر سلطاناً. وها هو الآن يرى، وها هم رجاله يرون، كيف غلب سيلابولابو، ذلك الزعيم الصغير، رئيس هؤلاء الآلهة البيض! وها هو يرى بعينيه برقهم ورعدهم لا

يحدثان ضرراً في هذه المرة، بل إنه ليرى أولئك المقاتلين الذين قيل إنهم لا يغلبون، يفرون خائفين أمام رجال سيلابولابو، ويتركون قائدهم بين أيدي أعدائه.

ولربما كان في وسع الإسبانيين أن ينقذوا سمعتهم لو عمدوا إلى خطة حازمة فاحتشد بحارة السفن جميعاً واستردوا جثة قائدهم وألقوا درساً قاسياً على ملك الجزيرة الصغير وقومه. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث.

ثم إن الإسبانيين قد صنعوا كل ما يمكن أن يصنعوه للقضاء على حسن التفاهم الذي كان قائماً بينهم وبين سكان الجزر. وقد سأل بيير مرتير بحارة السفن بعد عودتهم عن السبب الذي جعل السكان ينقلبون على الإسبانيين بعد موت ماجلان، فتلقى من أحد شهود العيان، البحار مرتان، وهو من أبناء جنوى، رداً معقولاً، مؤداه أن مسألة النساء كانت سبب ذلك الانقلاب. فإن ماجلان نفسه، بالرغم من حزمه، لم يتمكن من منع بحارته، بعد أن لبثوا محرومين من النساء عدة شهور، أن يعتدوا على نساء القوم الذين أخافوهم. فقد حاول عبثاً أن يضع حداً لأعمال العنف التي كانوا يقترفونها وعاقب بربوسا نفسه، وهو أخو زوجته، لأنه قضى ثلاث ليال متتابعة على البر...

والمظنون أن هذه الإباحية قد تزايدت بعد موت ماجلان. والشيء الوحيد الأكيد، هو أن كل احترام نحو الإسبانيين قد زال بزوال قوتهم العسكرية الموهومة.

ويغلب على الظن أن الإسبانيين أنفسهم قد أدركوا هذا الانقلاب، إذ إنهم أصبحوا فجأة راغبين رغبة ملحة في الرحيل. فلتنقل إذن إلى السفن جميع السلع التي لم يتم بيعها، ولتقلع السفن إلى جزر التوابل!... فإن فكرة ماجلان التي كانت ترمي إلى اكتساب صداقة الجزر للإمبراطور، بالطرق السلمية، هذه الفكرة لم تعد تشغل بال خلفائه. ولكن الإسبانيين في حاجة إلى هنريك لإنجاز معاملاتهم الأخيرة، فهو وحده يجيد لغة البلاد ويمكن أن يكون وسيطاً بينهم وبين السكان. وهنا، في هذه المناسبة، يتجلى الفارق بين ماجلان وخلفائه في فن معاملة الناس. فإن هنريك الوفي قد ظل ملازماً لسيده في أثناء المعركة إلى النهاية. وقد نقل جريحاً إلى سفينة القيادة، وهو الآن نائم هنا، بلا حراك، ملفوفاً في حصير، إما بسبب الجرح الذي أصابه، وإما لأنه يبكي سيده، كالحيوان الأمين. وها هو ذا دوارتي بربوسا، الذي اختاره البحارة بعد موت ماجلان قائداً للعمارة بالاشتراك مع سراو، يقترف خطأً شائناً بإساءته إلى خادم الفقيد الوفي إساءة مؤلمة. فقد قال له بلهجة غليظة، إنه لا ينبغي له أن يعتقد أن موت سيده يتيح له فرصة للبطالة، أو يظن أنه لم يعد

عبداً رقيقاً!... فبعد العودة إلى إسبانيا، سوف يسلمونه لزوجة ماجلان. وإذا لم ينهض فوراً، ويهبط معهم إلى البر كوسيط، فإنهم سوف يذيقونه طعم السياط!...

أما هنريك، الذي ينتمي إلى أقوام من الملايو لا يغفرون الإهانة، فإنه يتلقى التهديد بتحويل بصره إلى ناحية أخرى، واثقاً من أن ماجلان أعتقه في وصيته من العبودية ابتداء من ساعة موته، وأنه علاوة على ذلك قد خصه ببعض المال. ولهذا، فإنه يكظم غيظه وهو يفكر في الانتقام.

لقد خضع للأمر الذي تلقاه من بربوسا، وذهب إلى السوق، وتوسط بين البحارة والسكان. ولكنه استعان بمعرفته لغة البلاد، لينبه ملك سيبو إلى أن الإسبانيين قد اتخذوا جميع التدابير لنقل البضائع التي لم يتيسر لهم بيعها إلى السفن، وأنهم سيقلعون بعد أن يتم لهم ذلك. وإذا تصرف الملك ببراعة، فإنه يسهل عليه الاستيلاء على تلك البضائع دون أن يدفع مقابلها شيئاً، بل يسهل عليه أيضاً الاستيلاء على السفن الثلاث.

ويظهر أن هنريك، باقتراحه هذا، كان معبراً عن أفكار الملك نفسه. وعلى كل حال، فإن كلماته لقيت قبولاً حسناً. واشترك الرجلان في تدبير خطة لم يظهر منها شيء في بادئ الأمر. فإن تبادل السلع يجري ودياً، والملك يبالغ في التودد إلى البحارة، إخوانه في الدين. ويبدو أن هنريك نفسه، منذ أن لوح له بربوسا بالسياط، قد زايله كسله المزعوم. وفي اليوم الثالث بعد مصرع ماجلان، أي في أول مايو، حمل العبد إلى الربابنة رسالة مفرحة، وقد انبسطت أساريره. فإن ملك سيبو قد تلقى في النهاية مجموعة من الحلي والجواهر التي يرغب في إرسالها إلى سيده وصديقه ملك إسبانيا. وأراد أن يقيم حفلة فخمة لتسليم تلك الحلي والجواهر فدعا إليها جميع الزعماء وجميع مرؤوسيه. وهو يرجو أيضاً من الربانين بربوسا وسراو أن يذهبا إلى الحفلة مع ضباطهما وخيرة رجالهما، ليتسلموا الهدية التي يريد إرسالها إلى ملك إسبانيا.

ووقع سراو وبربوسا في الشرك الذي نصب لهما. فقد قبلا الدعوة مطمئنين، وثبت مرة أخرى أن الذين يقرأون في صفحة الفلك طالع غيرهم لا يجيدون قراءة طالعهم. فإن الفلكي المنجم أندريس دي سان مرتان، الذي نسي بلا شك أن يقرأ طالعه في ذلك اليوم، قد انضم إلى الربانين، في حين أن بيجافيتا الذي يدفعه عادة حب الاستطلاع، قد اضطره جرحه إلى البقاء في فراشه، فنجا من الموت!

وكان عدد الإسبانيين الذين نزلوا إلى البر تسعة وعشرين، بينهم خيرة رجال السفن من الربابنة والبحارة الذين يديرون حركات السفن ويقودونها. فاستقبلهم الملك

استقبالاً حافلاً، ودعاهم إلى حديقة تحفل بالنخيل، أعد لهم فيها مأدبة فاخرة. واجتمع حول «الأغراب» عدد كبير من السكان، تظاهروا بأنهم جاؤوا للفرجة، وراحوا يلاطفون المدعوين ملاطفة عجيبة. غير أن إلحاح الملك في دعوة ضيوفه إلى الحديقة أثار الشكوك في نفس جوان كرفالو، فأفضى بها همساً إلى غوميز دي اسبينوزا، مدرب البحارة على حمل السلاح، وقرر الرجلان أن يذهبا في الحال إلى السفن ويعودا ببقية رجالها لينقذوا رفاقهم إذا حاول السكان الغدر بهم.

فاعتذر الرجلان بمهارة، وابتعدا، وركبا زورقاً، وانطلقا مسرعين نحو السفن. وما كادا يصلان إليها، حتى تصاعدت من البر صيحات استغاثة. فقد تكرر ما حدث بالأمس في ملقة، ووثب السكان على الإسبانيين فذبحوهم غرة قبل أن يضعوا أيديهم على أسلحتهم. وهكذا، بضربة واحدة، تخلص ملك سيبو الغادر من ضيوفه، واستولى على البضائع التي أنزلت إلى البر، وعلى أسلحة الإسبانيين.

وشل الذعر والدهشة حركة البحارة الباقين على ظهر السفن، ثم تقدم كرفالو، الذي بلغ بعد مقتل الربابنة رتبة القائد العام دفعة واحدة، وأصدر أمره بالاقتراب من الساحل وتوجيه فوهات المدافع كلها إلى المدينة. وأطلقت البطاريات قنابلها الواحدة بعد الأخرى. ولعل كرفالو كان يأمل أن ينقذ بتوقيع هذه العقوبة، حياة بعض رفاقه. ولعل ذلك لم يكن غير ثورة غضب فجائية. ولكن، في الساعة التي تساقطت فيها القنابل الأولى على الأكواخ، كان جوان سراو أحد الإسبانيين الذين نزلوا إلى البر، قد أفلت من أعدائه كما أفلت من قبل فرانشيسكو سراو من أعدائه أيضاً، وأسرع هارباً إلى الشاطئ. ولكن أعداءه يلحقون به، ويقبضون عليه، ويكبلونه بالقيود. وهو الآن هناك، أعزل، يحيط به فريق من المتوحشين، يصرخ بكل قواه طالباً من رفاقه أن يوقفوا إطلاق النار، حتى لا يذبحه أعداؤه انتقاماً، ويناشدهم باسم السماء أن يرسلوا زورقاً ببعض السلع لافتدائه وفك أساره.

وحددت قيمة الفدية باثنتين من قاذفات القنابل وبضعة أطنان من النحاس. ولكن السكان يلحون أن تنقل هذه الأشياء إلى البر. وكرفالو يخشى أن يستولي أولئك الملاعين، الذين خانوا العهد، على البضائع والزورق أيضاً.

ولعل كرفالو كان يخشى، إذا دفع الفدية وأنقذ سراو، أن يخسر قيادة السفن التي آلت إليه، ويعود كما كان بحاراً مكلفاً بقود سفينته. ومهما تكن الدوافع، فإن كرفالو لم يرسل الفدية المتفق عليها.

وجعل جوان سراو، يرجو، ويأمل، ويصيح وقد تولاه يأس المشرف على الموت... ولكنه رأى السفن تخرج من المرفأ، فاستجمع ما تبقى من قواه، وقذف كرفالوا، من فوق الأمواج، بلعنة هائلة: إن الله سيحاسب كرفالو على هذه الخيانة البشعة حساباً عسيراً يوم الدين!

تلك كانت كلماته الأخيرة. وقد شاهد الإسبانيون مقتل قائدهم، قبل أن يقلعوا نهائياً عن الساحل...

وابتعد الإسبانيون هاربين، كأنهم مجرمون تطاردهم العدالة، عن الجزيرة التي قوبلوا فيها كالآلهة بقيادة ماجلان، بعد أن جلبوا على أنفسهم العار. وظلت لعنة قائدهم المقتول تطن في آذانهم، ووراءهم مشهد السكان وهم يرقصون من الفرح.

* * *

إنه لاستعراض للحوادث كئيب، ذلك الاستعراض الذي ينصرف إليه الآن أولئك الهاربون بعد خروجهم من المرفأ المشؤوم. فإن الإقامة في جزيرة سيبو كانت أقسى ضربة منيت بها السفن، بين جميع الضربات التي حلت بها منذ سفرها من أشبيلية.

لقد مات ماجلان، القائد الذي لا يعوض، وتبعه أفضل ربابنة السفن: دوارتي بربوسا وجوان سراو. وكان في وسعهما أن يقدما خدمات جليلة في أثناء العودة، لمعرفتهما التامة سواحل الهند الشرقية. وبموت أندريس دي سان مرتان. فقدت السفن رجلاً خبيراً في مراقبة الفلك لتنظيم سيرها. وبهرب هنريك فقدت ترجمانها. ولم يبق من البحارة، الذين كان عددهم مائتين وخمسة وستين رجلاً عندما أبحرت السفن من أشبيلية، غير مائة وخمسة عشر رجلاً، أي ما يكفي على أكثر تقدير لضمان سير سفينتين في البحر، فلابد والحالة هذه من التضحية بإحدى السفن الثلاث. ووقعت القرعة على السفينة «كونسبسيون» التي حدثت فيها ثقوب تتسرب منها المياه من كل ناحية. ونفذ حكم الإعدام بالسفينة بالقرب من جزيرة «بوهول»، فنقل منها إلى السفينتين الأخريين كل ما يمكن الاستفادة منه، حتى آخر مسمار وأصغر حبل فيها. ونظر البحارة بأعين حزينة إلى النار تلتهم السفينة التي ظلت سنتين بيتاً لهم ووطناً، والتي تغوص الآن في اليم الجشع وسحب الدخان الكثيف تتصاعد منها.

وهكذا لم يبق من العمارة غير سفينتين فقط، هما: «ترينيداد» التي كانت ترفع علم القيادة لماجلان، والسفينة الأخرى الصغيرة «فكتوريا».

* * *

وسارت السفينتان في طريقهما بصورة تدل على الارتباك، تنحرفان تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار. بين جزر السوند، فيشبه سيرهما سير العميان. وهما لا تذهبان مباشرة إلى الجنوب الغربي نحو جزر ملوك بعد ما أصبحتا على مقربة منها، بل تتجهان - لسبب مجهول - إلى الشمال الغربي، في سيرهما الملتوي. وهكذا ضاع شهران في طواف غير منتظم، أدى بالسفينتين إلى ميناء مندناو بجزيرة بورنيو.

وبدت مظاهر فقدان القيادة الرشيدة في اضطراب النظام والتقاليد في السفينتين. فعندما كانت القيادة في يد ماجلان، لم تحدث أعمال نهب في البر، ولا أعمال قرصنة في البحر. فكل شيء كان خاضعاً لنظام دقيق، وكانت حسابات القافلة تقيد بدقة. ولم ينس ماجلان لحظة واحدة أنه، بوصفه أمير البحار لأسطول شارلكان، يجب عليه أن يحافظ على سمعة العلم الإسباني في أقصى البلدان. أما خلفه كرفالو، الذي لم يرتفع إلى القيادة إلا لأن رؤساءه قد هلكوا، فإنه يجهل تماماً هذه الاعتبارات. وهو يمارس بلا خجل أعمال القرصنة، ويستولي على كل ما تقع عليه يده. فجميع المراكب التي تلتقي بها السفينتان تهاجم وتنهب. والأموال التي يحصل عليها كرفالو لافتداء من يأسرهم رجاله تدخل جيبه الخاص. وقد أهمل في السفينتين مسك دفاتر الحسابات، لأن كرفالو هو الذي يحاسب وهو الذي يحتفظ بالمال.

ولم يسمح ماجلان، رغبة منه في المحافظة على النظام، بصعود أية امرأة إلى ظهر السفينة. أما كرفالو فقد جاء بثلاث نساء سباهن من أحد المراكب المنهوبة، محتجاً بأنه يريد إهداءهن لملكة إسبانيا.

ولكن البحارة أتعبهم في النهاية سلوك القائد الجديد، وكتب دلكانو يقول إنهم أدركوا أن كرفالو لا يعمل لمصلحة الملك بل لمصلحته. فاتفقت كلمة البحارة على نزع القيادة منه، وأحلوا مكانه لجنة ثلاثية، مؤلفة من غوميز دي اسبينوزا، ربان السفينة «ترينيداد» وجوان دلكانو، ربان السفينة «فكتوريا» وبونسيرو البحار المكلف بدفة القيادة، والذي كانوا يسمونه «حاكم العمارة».

على الرغم من هذا الانقلاب واصلت السفن سيرها المضطرب، لولا أن مصادفة سعيدة أعادت السفينتين إلى الطريق القويمة، فقد هاجمت السفينتان ذات يوم مركباً في الطريق ونهبه البحارة وأسروا فيه رجلاً من جزيرة ترنات، إحدى جزر التوابل. وكان الرجل بطبيعة الحال يعرف الطريق إلى تلك الجزر، بل إنه كان يعرف فرانشيسكو سراو، صديق ماجلان!

إذن، ففي وسع رجال السفينتين أن يتجهوا الآن مباشرة إلى هدفهم، الذي داروا حوله أكثر من مرة في الأسابيع الهوجاء السابقة دون أن يدركوه. وفي بضعة أيام تقدموا إلى الهدف أكثر مما تقدموا إليه في ستة أشهر قضوها في بحث جنوني لا طائل تحته، وتم تقدمهم بلا عناء. وفي ٦ نوفمبر، بدت لهم في الأفق جبال ترنات وتيدور... لقد وصلوا أخيراً إلى الجزر المباركة.

وكتب بيجافيتا: «إن الدليل الذي يرافقنا يقول إن هذه الجزر هي جزر ملوك. فشكرنا الله جميعاً، وأطلقنا المدافع إظهاراً لفرحنا. ولا يعجبن أحد لهذا الفرح، إذ أننا قضينا سبعة وعشرين شهراً إلا يومين نبحث عن هذه الجزر!».

وفي ٨ نوفمبر، وصلت السفن إلى تيدور، إحدى جزر ملوك الخمس، التي حلم بها ماجلان طول حياته. وما إن ألقت السفن مراسيها، حتى أسرع الملك «المنصور» الذي كان سراو من أصدقائه، تحت مظلة من الحرير، ورحب بالضيوف ترحيباً أخوياً، قائلاً لهم: «تعالوا وافرحوا. فقد طفتم طويلاً بالبحار، ولقيتم ما لقيتم من أخطار، فتمتعوا الآن بالراحة ولا تفكروا في شيء، واعتبروا أنكم هنا في إمبراطورية سيدكم!».

واعترف الملك عن طيبة خاطر بسيادة ملك إسبانيا، وبدل أن يفعل ما فعله الزعماء الآخرون من قبل، ويأخذ من هؤلاء الأجانب أقصى ما يستطيع، فقد رجاهم أن لا يقدموا إليه كثيراً من الهدايا لأنه لا يملك شيئاً جديراً بأن يقدمه إليهم نظير هداياهم.

إنها لجزر مباركة حقاً! وكل ما يريده الإسبانيون يحصلون منه على كميات وافرة: التوابل الثمينة، والمواد الغذائية، وتراب الذهب، وما لا يستطيع الملك تقديمه إليهم، يأتي به من الجزر القريبة. وبعد ما لقيه البحارة من صنوف الحرمان والآلام، شعروا بأنهم انتقلوا إلى نعيم السعادة. وبلغوا حد الهوس والجنون، فجعلوا يبتاعون كل ما يستطيعون من التوابل والطيور النادرة، ويعطون مقابل ذلك بنادقهم ومعاطفهم وأحزمتهم. فما الفائدة من الاحتفاظ بذلك كله؟ أليسوا على أهبة العودة إلى الوطن؟

نعم إن فريقاً منهم يؤثرون البقاء في هذا النعيم. ولهذا، فإن كثيراً من البحارة قابلوا بفرح ظاهر النبأ الذي عرفوه فجأة قبيل الرحيل، وهو أن سفينة واحدة تستطيع السفر. أما الثانية، فلابد من ترميمها، وسيبقى خمسون منهم في تلك الجزيرة ريثما يتم هذا العمل.

والسفينة التي كتب لها البقاء هي سفينة القيادة «ترينيداد» وهي أول سفينة أقلعت من مرفأ سان لوكاد، وأول سفينة دخلت المضيق، وأول سفينة انطلقت في المحيط المجهول، سائرة دائماً إلى الأمام، وقد تجسمت فيها إرادة قائدها. أما الآن وقد غاب القائد، فإن السفينة قد نفد جلدها، ولم تعد قادرة على السير إلى أبعد من هنا. وهي الآن أشبه بالكلب الأمين، الذي يأبى أن يغادر قبر سيده. وقد وقفت عند الهدف الذي وضعه ماجلان نصب عينيه.

فبعد أن نقلت إلى ظهر السفينة «ترينيداد» المؤن وشحنة التوابل، رفع عليها علم القديس جاك وقد سطرت عليه هذه العبارة: «هذه شارة عودتنا السعيدة!» وبعد أن نشرت القلوع، إذا بالسفينة القديمة التي نخر السوس حوافيها تهتز فجأة وتتفكك أخشابها...

واندفعت المياه إلى جوف السفينة دون أن يدرك أحد من أين تندفع. فلابد إذن من الإسراع في إعادة ما تراكم فيها إلى البر، وإلا فإنها هالكة بما فيها. وسيستغرق إصلاحها بضعة أسابيع...

غير أن السفينة الباقية لا يسعها أن تنتظر. فقد آن لها أن تؤوب إلى الوطن، وتحيط الإمبراطور علماً بأن ماجلان قد بر بوعده، وضحى بحياته ليحقق، في ظل العلم الإسباني، أعظم عمل في تاريخ الملاحة. وتقرر بالإجماع أن تحاول السفينة «ترينيداد» بعد إصلاحها، عبور المحيط الهادئ من جديد، لتصل إلى بناما، في أملاك إسبانيا وراء البحار. أما السفينة «فكتوريا» فإنها في أثناء ذلك ستحاول الإفادة من هبوب الرياح الملائمة، وتعود إلى الوطن من الغرب، بطريق المحيط الهندي.

ووقف قائدا السفينتين وجهاً لوجه يتبادلان تحية الوداع، بعد أن لبثا يتعاونان في العمل المشترك سنتين ونصفاً.

* * *

كان الوداع مؤثراً!... فإن سبعة وأربعين من الضباط والبحارة، سيستأنفون السفر عائدين إلى الوطن بالسفينة «فكتوريا» بينما يبقى واحد وخمسون من الرجال منتظرين في جزيرة تيدور ريثما يتم إصلاح السفينة «ترينيداد» وقد ظل هؤلاء مع رفاقهم على ظهر السفينة المسافرة، ليتبادلوا معهم القبلات، ويحملوهم التوصيات والرسائل إلى ذويهم، حتى أزفت ساعة الرحيل. فإن العمل المشترك، مدة سنتين

ونصف، قد جعل من هذا الخليط المؤلف من رجال ينتمون إلى جميع القوميات والأجناس كتلة واحدة متماسكة. ولن يفرق بينهم بعد الآن خلاف أو انقسام. ولما رفعت السفينة «فكتوريا» مراسيها، تمنى الباقون أن لا يفترقوا عن الذاهبين. ثم ركبوا الزوارق وجعلوا يطوفون حول جوانب السفينة ليحيوا للمرة الأخيرة رفاقهم قبل الفراق النهائي.

ولم تعد الزوارق إلا بعد أن أقبل الليل وتعبت الأيدي، فأطلقت السفينة المسافرة مدافعها لتحية الإخوان المتخلفين على الشاطئ. وبدأت السفينة «فكتوريا» رحلتها التاريخية.

إن الرحلة حول نصف الكرة الأرضية، التي قامت بها هذه السفينة المنهكة البالية، بعد ثلاثين شهراً قضتها بلا انقطاع فوق البحار، لعمل جدير بأن يدون بين الانتصارات البحرية في التاريخ. فإن سباستيان دلكانو، بانجاز المشروع الذي اضطلع به قائدة الراحل، قد كفر تكفيرا مجيداً عن الخطأ الذي ارتكبه من قبل. ويبدو لأول وهلة أن المهمة التي ألقيت على عاتقه ليست من الصعوبة بمكان. فإن السفن البرتغالية، منذ أوائل ذلك القرن، تغادر بانتظام جزر الهند الشرقية، مستعينة بالرياح الدورية في المحيط الهندي، قادمة من البرتغال أو آيبة إليه. فالسفر إلى الهند، الذي كان قبل ذلك الوقت بعشر سنوات، في عهد ألبو كرك وألميدا، يعد مغامرة في بحار مجهولة، لم يعد يتطلب الآن غير معرفة الطريق، التي تنتشر على طولها المحطات. وفي كل محطة تقف السفن، في الهند وأفريقيا، وملقة وموزمبيق والرأس الأخضر حيث توجد مراكز تجارية بها موظفون برتغاليون. ويسهل على السفن أن تحصل في تلك المحطات على حاجتها من كل شيء، ففيها مواد غذائية وافرة، وبحارة أدلاء مدربون لقيادة السفن عند الحاجة.

لكن الصعوبة الهائلة التي يجب على دلكانو أن يتغلب عليها، لا تنحصر في اضطراره إلى عدم الاستعانة بتلك المحطات فقط، بل توجب السير بعيداً عن الطريق المألوفة. فقد علم دلكانو ورفاقه في تيدور، من فم لاجئ برتغالي، أن الملك مانويلو قد أصدر أمره بالاستيلاء على سفن ماجلان والقبض على بحارتها بوصفهم من القراصنة. وهذا في الواقع هو المصير القاسي الذي سيلاقيه رفاقهم بالسفينة «ترينيداد».

إذن، فعلى دلكانو أن يعبر المحيط الهندي، ويدور حول رأس الرجاء الصالح، ويصعد في محاذاة السواحل الإفريقية، دون أن ينزل إلى البر مرة واحدة، بسفينة

شراعية مجهدة، ينخرها السوس، وتثقلها حمولتها.

* * *

في الثالث عشر من شهر فبراير سنة ١٥٢٢ ـ وهو تاريخ يجب تسجيله ـ بدأت القفزة التي لا مثيل لها، من جزيرة تيمور إلى أشبيلية!... فقد وضع دلكانو في السفينة مزيداً من المواد الغذائية والمياه العذبة، وأعاد النظر في كل ركن منها فأصلح ورمم، مقتدياً في ذلك برئيسه الراحل، قبل أن يقذف بها لبضعة أشهر في أحضان الرياح والأمواج.

وفي خلال الأيام الأولى، سارت السفينة أمام سواحل جزر جديدة ولمح رجالها من بعيد غابات المناطق الدافئة، والجبال البارزة فوق الأفق. ولكن الشتاء يسرع، ولا يسمح للسفينة أن تقف في مرفأ تتزود منه أو تأوي إليه. ويجب الاستعانة بالريح الغربية. ولهذا السبب، مرت السفينة «فكتوريا» دون أن تلقي مراسيها أمام تلك الجزر الجذابة، مما أثار الحزن في نفس بيجافيتا النهم، الذي لم يكفه بعد كل ما وقعت عليه عيناه من «أشياء مدهشة» وكان دلكانو قد أخذ معه تسعة عشر رجلاً من أبناء الجزر، أما البحارة الأوروبيون في السفينة فكان عددهم سبعة وأربعين فجعل بيجافيتا يقطع الوقت مستمعاً إلى أولئك «الوطنيين» يقصون عليه أغرب الخرافات عن الجزر التي تمر أمامها السفينة. فهنا، في هذه الجزيرة، يعيش رجال لا يزيد ارتفاع قامتهم عن خمسة وعشرين سنتيمتراً، ولكن آذانهم طويلة تبلغ الأرض. وفي الليل، ينام الواحد منهم على إحدى أذنيه ويغطي نفسه بالأخرى. وهناك، في تلك الجزيرة، لا يوجد غير النساء. ولا يسمح للرجال بأن يدخلوها. ولكن أولئك النساء يحبلن بفعل الرياح. وإذا ولدن ذكوراً قتلنهم لأنهن لا يحتفظن إلا بالإناث!

غير أن الجزر الأخيرة تختفي الواحدة بعد الأخرى، في جو تلك الأقاصيص الخرافية التي يقصها أولئك الرواة على بيجافيتا الطيب القلب. ولا يبقى الآن حول السفينة غير المحيط الهندي من طرفه إلى طرفه، لا يرى رجالها غير الماء والسماء وكلاهما حزين كئيب...

* * *

وفجأة، ظهر من جوف السفينة ذلك الشبح الذي يعرفه البحارة، الشبح الباهت، ذو العينين الغائرتين، شبح المجاعة!... إنه ينتصب الآن بينهم فجأة، ويحدق فيهم ساخراً!...

فما الذي حدث؟!

كارثة غير منتظرة، تفسد جميع التقديرات التي حسب لها دلكانو حساباً. فقد شحنوا في السفينة من المواد الغذائية وخاصة اللحوم ما يكفي خمسة أشهر. ولكنهم لم يجدوا في جزيرة تيمور ما يلزم من الملح. وأثرت شمس المحيط الهندي المحرقة في اللحوم، ففسدت واضطر البحارة إلى إلقاء جميع المخزون منها في البحر، ليقوا أنوفهم رائحتها الكريهة الخانقة. ولم يبق عندهم الآن غير الأرز طعاماً، الأرز والماء، ثم الماء والأرز، وكل يوم تنقص جراية الأرز وتنقص جراية الماء، عدا أن الماء أيضاً أصبح ملحاً!...

وأصيب البحارة من جديد بفساد الدم، وعاد الموت يحصدهم... وفي أوائل شهر مايو، ساءت الحال حتى جهر فريق من البحارة بأنه خير لهم أن يتجهوا تلقاء ساحل موزمبيق، ويسلموا السفينة للبرتغاليين، من أن يموتوا في عرض البحر جوعاً.

غير أن إرادة ماجلان الحديدية قد انتقلت إلى العاصي القديم دلكانو، بانتقال القيادة إليه. فإن هذا الرجل نفسه، الذي كان بالأمس يريد إرغام أمير البحر على العودة إلى إسبانيا يطلب الآن من رجاله أن يتذرعوا بشجاعتهم كاملة، وينجح في فرض رأيه عليهم وسيكون في وسعه أن يقول في المستقبل للإمبراطور: «قررنا أنه خير لنا أن نموت من أن نقع في أيدي البرتغاليين!».

وجازف البحارة ذات يوم مجازفة جريئة فنزلوا على ساحل إفريقيا الشرقية، ولكن دون جدوى. فإنهم لم يجدوا ماء ولا ثمراً في تلك البقعة الجرداء، واضطروا إلى استئناف رحلتهم الرهيبة، ولا عاصم لهم من شقاء الجوع والظمأ في التيه الزاخر!

ووصلوا إلى رأس الرجاء الصالح ـ وسموه غير عامدين باسمه السابق «كابو تورمنتوزو» أي «رأس الزوابع» ـ فدهمتهم هناك زوبعة هائلة شقت الصارية الكبرى وأسقطت الثانية. فأصلح البحارة الضرر بقدر ما استطاعوا، حتى أعياهم الجهد وترنحوا من النصب، وراحت السفينة تزحف كالجريح، على طول الساحل الإفريقي، زحفاً متثاقلاً بطيئاً، وتصعد من جوفها أنين الألم...

ولكن الطاغية الجائر لا يتركهم لحظة واحدة وهم في مهب العاصفة أو ظلال الهدوء، في الليل أو في النهار، فإن شبح المجاعة الأشهب يقهقه!... وقد ابتكر في هذه المرة نوعاً من التعذيب جديداً، أكثر فظاعة من جميع أنواع التعذيب الأخرى... فإن قاع السفينة ليس فارغاً، كما كان عند اجتياز المحيط الهادئ، وإنما هو ملآن

بصنوف من السلع، منها سبعمائة قنطار[1] من الأبزار، أي ما يكفي لتتبيل الطعام لمئات الآلاف من الناس. ولكن، ما فائدة التوابل لبحارة سفينة جائعين؟ وهل في وسعهم أن يأكلوا حبوب البهار، أو يستعيضوا عن الخبز بالقرفة أو جوز الطيب؟ وعندما يسخر القدر يموت الإنسان ظمأ في ثبج البحر، ولكن القدر يبلغ أقصى سخرياته عندما يموت بحارة السفينة «فكتوريا» من الجوع وسط جبال من الأبزار والتوابل.

كل يوم تلقى في البحر جثث جديدة... ولما صارت السفينة، في اليوم التاسع من شهر يوليو، على مرأى من جزر الرأس الأخضر، بعد رحلة استغرقت خمسة أشهر، لم يكن باقياً من الإسبانيين غير واحد وثلاثين رجلاً وكانوا سبعة وأربعين عندما غادرت السفينة جزيرة تيمور. أما أبناء الجزر، فلم يكن باقياً منهم غير ثلاثة فقط، وكانوا تسعة عشر رجلاً!

إن جزر الرأس الأخضر مستعمرة برتغالية. ومدينة سنتياغو ميناء برتغالي. والوقوف هناك معناه الاستسلام للعدو، وإلقاء السلاح على عتبة النصر. ولكن لم يبق في السفينة من المؤن ما يكفي لأكثر من ثلاثة أيام على أبعد تقدير. والجوع لا يترك لهم حرية الاختيار: فيجب أن ينزلوا إلى البر، ولكنهم سيلجأون إلى حيلة جريئة...

فقبل أن يرسل دلكانو رجاله إلى الميناء، جعلهم يقسمون بألا يبوحوا للبرتغاليين بأنهم البقية الباقية من عمارة ماجلان - وعليهم أن يدعوا أن عاصفة قذفت بهم من أمريكا، أي من أرض إسبانية. ومنظر الصارية المصدوعة، وحالة السفينة السيئة، كل ذلك يحمل على تصديق الرواية...

ورحب البرتغاليون بركاب الزورق، على سبيل التضامن، دون أن يوجهوا إليهم كثيراً من الأسئلة، أو يرسلوا موظفين لفحص شحنة السفينة. ثم أعطوا الإسبانيين كمية كافية من الماء وزاداً طازجاً. وعاد الزورق إلى السفينة مرة فثانية فثالثة، محملاً بالمؤن ما يكفي للوصول إلى أشبيلية. وللمرة الرابعة، أرسل دلكانو الزورق ليأخذ كمية من الأرز والفاكهة... وهذه المرة ستكون الأخيرة. فالسفينة ستبحر بعد ذلك بلا إبطاء...

---

(١) قنطار، في بعض اللغات الأوروبية «كنتال» وهو وزن كان ولا يزال يختلف باختلاف البلدان، مثل الليبرة، ويبدو أن القنطار - أو الكنتال - الذي نحن بصدده كان يوازي جزءاً من عشرين من الطن بحساب ذلك العهد.

ولكن، ما أغرب هذا!... إن الزورق لم يعد. وما لبث دلكانو أن أدرك ما حدث... إن أحد البحارة قد تفوه غير متبصر بعبارات نمت عليهم. أو حاول أن يبيع بعض التوابل مقابل الحصول على الخمر... وعلى كل حال، فإنه يبدو أن البرتغاليين قد عرفوا سفينة ماجلان، وفطن دلكانو إلى أنهم يعدون مركباً على الساحل لمنع سفينته من السفر...

إذن، فالجرأة وحدها تنقذه من هذه الورطة. وسيترك الرفاق على البر، وليحدث لهم ما يحدث!...

واصدر دلكانو أمره برفع المراسي ونشر القلوع بسرعة، بالرغم من أن عدد البحارة الباقين على السفينة معه لا يتجاوز الثمانية عشر، وهو عدد لا يكفي لإدارة السفينة المنهكة التي تتسرب المياه إلى داخلها، حتى الموانئ الإسبانية...

إنه لفرار، نعم: ولكنه فرار إلى النصر!

وبالرغم من أن الوقوف في جزر الرأس الأخضر كان قصيراً خطيراً، فإن بيجافيتا قد لمس هناك، في اللحظة الأخيرة، إحدى العجائب التي قام بهذه الرحلة من أجلها... ففي ذلك المكان، دوّن الرجل ظاهرة جديدة مدهشة، سوف تثير فيما بعد اهتمام العالم كله، فإن البحارة الذين نزلوا إلى البر لشراء المؤن، عادوا يقولون إن ذلك اليوم هو يوم «الخميس» في حين أن من في السفينة قد أكد لهم أن ذلك اليوم هو يوم «الأربعاء»، فدهش بيجافيتا، لأنه في خلال الرحلة كلها، قد دون مذكراته يوماً فيوماً، وسجل بانتظام أسماء أيام الأسبوع، فهل يكون قد نسي يوماً؟

سأل البحار آلفو، المكلف بدفة القيادة. والذي دوّن الأيام أيضاً في سجله اليومي، فاتضح له أن ذلك اليوم هو بلا شك يوم «الأربعاء» وعلى هذا لابد من القول بأن السفن في ذهابها بإطراد إلى جهة الغرب، قد كسبت يوماً، بكيفية غير مفهومة!

ولما أفضى بيجافيتا بخبر هذه الظاهرة العجيبة، دهش لها العالم: فقد رفع الستار عن سر جديد، لم يفطن إليه حكماء اليونان، ولا بطليموس، ولا أرسطو، ويعود الفضل في اكتشافه إلى رحلة ماجلان.

وهذه المعرفة الجديدة، التي تثبت أن من يطوف حول الأرض سائراً في اتجاه دورانها يكسب جزءاً من الوقت ينتزعه من اللانهائية، هذه المعرفة قد أثارت اهتمام العلماء في القرن السادس عشر، بقدر ما أثارت اهتمام العلماء في عصرنا هذا

نظرية النسبية. وقد أسرع بيير مريتر إلى أحد العلماء ليشرح له هذه الظاهرة، ثم شرحها بدوره للإمبراطور وللبابا.

وهكذا، بينما كان الآخرون يجيئون بأكياس التوابل، كان ذلك الفارس من «فرسان رودس» يجيء من هذه الرحلة بما هو أثمن من كل شي مادي: بمعرفة جديدة!

لكن السفينة لم تصل بعد إلى نهاية طوافها. فإنها منهكة مفككة تجر نفسها متثاقلة بين الأمواج. وقد كان عدد رجالها ستة وستين عندما غادرت جزر التوابل، فلم يبق منهم الآن غير ثمانية عشر. وهي مفتقرة في هذه المرحلة خاصة، إلى أذرع قوية لضمان سيرها. فهي مهددة بكارثة في الوقت الذي توشك أن تدرك فيه الهدف. وأخشاب السفينة القديمة لم تعد متماسكة. والمياه تتسرب كل يوم من خلال الشقوق. وقد حاول البحارة بادئ الأمر أن يعالجوا هذا التسرب باستعمال المضخة، ولكن ذلك لم يكن كافياً، وأصبح لابد من إلقاء جزء من الشحنة في البحر، لكي ينقص من غوص السفينة في الماء، غير أن دلكانو لا يريد أن يمس ما هو ملك للإمبراطور:

ظل البحارة المنهكون يدفعون الماء إلى الخارج بمضختين ليلاً ونهاراً. وفي الوقت ذاته، كان عليهم أن يتولوا تصريف الأعمال اليومية التي لابد منها: شد القلوع، وإدارة الدفة، ومراقبة البحر من برج الحراسة، إلى غير ذلك مما تتطلبه السفينة في سيرها. وإن هذا لعمل مضن بالنسبة إلى رجال قليلي العدد. فالبحارة لا يذوقون النوم منذ أيام، وقد أصبحوا غير قادرين على المقاومة، فإنهم يتنقلون من مكان إلى مكان متمايلين كأنهم يمشون نائمين. وقد كتب دلكانو في تقريره للإمبراطور: «لم يتعب أحد قط كما تعب هؤلاء!».

ومع ذلك فإن كل واحد منهم مضطر أن يقوم بأضعاف العمل المنوط به. وهم يفعلون ذلك ويبذلون فيه البقية الباقية من قواهم، لأنهم شارفوا الهدف، فقد غادروا جزر الرأس الأخضر في ١٣ يوليو. وفي ٤ سبتمبر سنة ١٥٢٢، انبعث هتاف مفرح: رأس فنسان في الأفق!

إن أوروبا تنتهي في نظرنا عند ذلك المكان. وأما بالنسبة إليهم، هم الذين طافوا حول العالم، فإن أوروبا تبدأ هناك، وهناك تبدأ أرض الوطن!

برزت الصخرة العمودية من الماء رويداً رويداً، وجعلت الشجاعة تعاودهم كلما زاد اقترابهم منها: إلى الأمام! إلى الأمام!... لم يبق أمامهم غير يومين وليلتين!...

لم يبق أمامهم غير ليلتين ويوم!... لم يبق أمامهم غير يوم وليلة!.. لم ليبق أمامهم غير ليلة، ليلة واحدة!

وأخيراً، تزاحموا جميعاً على ظهر السفينة، وقد تهللت أساريرهم فرحاً... فها قد لمح في الأفق خيط فضي دقيق... هو نهر جوادلكيفير - «الوادي الكبير» الذي يصب في البحر عند مرفأ سان لوكار دي براميدا. ومن هنا أقلعت منذ ثلاث سنوات بقيادة ماجلان، خمس سفن تحمل مائتين وخمسة وستين رجلاً. واليوم، تقترب أصغر السفن الخمس وحدها، وتلقي مراسيها في المكان ذاته، وينزل منها ثمانية عشر رجلاً يتمايلون في مشيتهم، ويحبون على ركبهم، ويقبلون أرض الوطن الطيبة الثابتة.

وفي ٦ سبتمبر سنة ١٥٢٢، انتهت أعظم رحلة في البحر عرفها التاريخ.

* * *

وعلى أثر النزول إلى البر، كان أول ما فعله دلكانو رسالة إلى الإمبراطور تحمل إليه النبأ العظيم. ثم امتدت أيدي البحارة بلهفة لأخذ أرغفة الخبز الساخن الطازج الذي قدم إليهم. فإنهم منذ سنوات لم يضموا أصابعهم على هذا اللباب الجيد اللين، ولم يذوقوا خمر الوطن، ولحمه، وفاكهته. والناس ينظرون إليهم كأنهم هاربون من الجحيم.

وبعد أن أكلوا وشبعوا، ألقوا بأنفسهم على فراشهم وناموا، ناموا طول الليل، نوماً هادئاً، للمرة الأولى منذ أعوام، وقد ضموا قلبهم إلى قلب الوطن!

وفي اليوم التالي، أقلعت السفينة «فكتوريا» التي شرفت الاسم الذي تحمله، ودخلت في الوادي الكبير، متجهة إلى أشبيلية. ومن فوق السفن التي التقوا بها، كان الناس ينظرون إليهم بدهشة، وينادونهم: من أنتم؟ وما هذه السفينة؟! فلم يعد أحد يذكرهم. ومن زمن بعيد، ظنت إسبانيا، وظن العالم بأسره، أن سفن ماجلان غرقت. وها هي الآن هذه السفينة الصغيرة المنتصرة، تعود، متقدمة بعناء ولكن بكبرياء، نحو المجد الذي ينتظرها!

وأخيراً، ها هو ذا برج جيرالدا، برج أشبيلية الأبيض، يلمع من بعيد. والعين ترى مرفأ «لاس مويلاس» الذي هبطت منه السفن الخمس إلى البحر.

وصاح دلكانو آمراً: «إلى المدافع!».

وكان هذا آخر أمر أصدره في هذه الرحلة، وقصفت المدافع!

على هذا النحو كانت تحية وداعهم للوطن منذ ثلاثة أعوام. وعلى هذا النحو

كانت تحيتهم للمضيق الذي وجدوه. وعلى هذا النحو كانت تحيتهم للمحيط الهادئ عندما ولجوه. ويمثل هذه الطلقات حيوا جزر فيليبين التي اكتشفوها، وأعلنوا إنجاز المهمة التي فرضها ماجلان على نفسه، وهي الوصول إلى جزر التوابل بطريق الغرب. وعلى هذا النحو كانت تحيتهم عندما ودعوا رفاقهم المتخلفين في تيدور.

ولكن هزيم المدافع لم يكن يوماً صافياً مفرحاً كما هو اليوم، لكأنه يقول: «لقد عدنا!... لقد صنعنا ما لم يصنعه أحد من قبلنا: الطواف حول الكرة الأرضية!».

الموتى دائماً مخطئون

تجمع الناس مدهوشين على شاطئ النهر في أشبيلية، ليشاهدوا هذه السفينة المجيدة - كما يقول أوفيدو - التي تعد الرحلة التي قامت بها أعظم فوز تحقق منذ أن خلق العالم!

واتجهت الأنظار إلى البحارة الثمانية عشر، ينزلون واحداً واحداً من السفينة، ويطأون اليابسة بخطى متعثرة، إنهم مرهقون، ضعفاء مرضى، هؤلاء الأبطال المجهولون، الذين جعلتهم السنوات الثلاث المروعة يشيخون عشر سنوات! فالناس يهتفون لهم ولكنهم يرثون لحالهم، ويقدمون الطعام، ويدعونهم للدخول إلى البيوت، ويرجونهم أن يقصوا عليهم مغامراتهم وآلامهم.

ولكنهم يرفضون... فيما بعد، سيتكلمون فيما بعد! أما الآن، فليسمح لهم الناس بأن يوفوا بالنذر الذي نذروه على أنفسهم في أشد ساعات الخطر. وفي سكون خاشع وقف الناس صفين، وتبعوهم بالأنظار وهم ذاهبون، حفاة الأقدام، مجللين بالأكفان، حاملين الشموع بأيديهم، إلى كنيسة سانتا ماريا!...

فإلى تلك الكنيسة التي صلوا فيها وتلقوا البركة يوم الرحيل، جاؤوا اليوم يشكرون الله على النعمة العظيمة التي أغدقها عليهم، إذ أنقذهم من الهلاك، وأعادهم إلى الوطن...

وانبعثت أنغام الأرغن مرة أخرى. ومرة أخرى وقف الكاهن يصلي ويبارك. وبعد أن توجه البحارة الثمانية عشر بآيات الشكر إلى العلي القادر، راحوا يرتلون

صلاة الموتى عن نفس قائدهم وإخوانهم الغائبين. فأين هم، أولئك الذين كانوا هنا، في نفس هذا المكان، يرمقون أمير البحر بأنظارهم، وهو ينشر العلم الحريري الذي أهداه الملك إليه، والذي باركه الكاهن؟ لقد هلكوا في البحار، أو ذبحهم الهنود، أو ماتوا من الجوع والبرد، أو ضاعوا، أو وقعوا في الأسر.

وعليهم هم وحدهم وقع اختيار القدر ـ ولا أحد يعلم السبب ـ ليذوقوا لذة النصر المجيد!

* * *

وفي أثناء ذلك، كان الخبر قد انتشر في أنحاء أوروبا، وكانت الحماسة التي أثارها ذلك الفتح الفكري العظيم عامة شاملة. والذين تولوا المشروع أنفسهم، أي أعضاء بيت الهند وكريستوفر دي هارو، كانوا من ناحيتهم أيضاً مسرورين مرتاحين. فقد سبق لهم أن دونوا في حساب الخسائر والأرباح الملايين الثمانية التي دفعوها بتجهيز السفن. وها هي الشحنة التي تحملها هذه السفينة الصغيرة العائدة تكفي لتغطية النفقات، بل تترك أرباحاً تذكر. فإن كمية التوابل التي جاءت بها السفينة «فكتوريا» من جزر ملوك، ومقدارها خمسمائة وعشرون قنطاراً (٢٦ طناً) عادت بربح صاف قدره خمسمائة دوكا. وإذن، فإن شحنة هذه السفينة وحدها قد عوضتهم عن ضياع السفن الأربع الأخرى، إذا أسقطنا من حسابنا البحارة المئتين الذين فقدوا!...

وفي العالم كله عشرة رجال فقط، أثارت الذعر في نفوسهم عودة سفينة من سفن ماجلان إلى ميناء أشبيلية. أولئك هم الربابنة والبحارة العصاة، الذين فروا من القافلة بالسفينة «سان أنطونيو» وعادوا إلى بلادهم قبل ذلك بسنة. فإن خبر عودة السفينة «فكتوريا» قد رن في آذانهم رنيناً رهيباً، إذ أنهم كانوا يأملون أن لا يعود ذلك الشاهد الخطر أبداً. وقد عبروا أمام العدالة بصراحة عن ذلك الأمل الذي داعب نفوسهم، وباهوا أمام لجنة التحقيق بحادث تمردهم كأنه عمل وطني، لأنهم كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً أن السفن الأخرى بمن فيها من بحارة ترقد من زمن بعيد في قرار المحيط. ولم يفوهوا بكلمة طبعاً عن اكتشاف ماجلان للمضيق في الوقت الذي تخلوا فيه عنه، بل أشاروا فقط إلى «خليج» دخلوا فيه، وقالوا إن ذلك الممر الذي يبحث عنه ماجلان لا فائدة منه. ولكنهم كانوا من ناحية أخرى قد اتهموا ماجلان بأنه فتك بالرجال الذين وضع الملك فيهم ثقته لكي يسلم السفن إلى البرتغاليين،

وتمكنوا هم من إنقاذ هذه السفينة فقط، بالقبض على مسكيتا الذي عينه ماجلان قائداً لها خلافاً لكل قانون.

إن هيئة المحكمة لم تصدق أقوال أولئك البحارة الهاربين، ولم تكن متحيزة حين قررت أن موقف الفريقين يدعو إلى الشك والريبة. وأرسل الجميع إلى السجن، مسكيتا الأمين والضباط المتمردون ورفاقهم. وصدر أمر إلى زوجة ماجلان بأن لا تغادر المدينة - ولم يكن أحد يعلم بعد أنها كانت في ذلك الوقت قد أصبحت أرملة بموت زوجها. وكان رأي المحكمة أنه لابد من انتظار عودة السفن الأخرى لمعرفة حقيقة ما حدث. فلا غرابة إذن أن تكون طلقات المدافع من السفينة «فكتوريا» قد مزقت آذان العصاة، فهي تنذرهم بأنهم هالكون لا محالة! فقد فاز ماجلان، وسوف ينتقم انتقاماً قاسياً ممن خانوا القسم وتخلوا عنه وكبلوا بالحديد الربان الذي اختاره بنفسه.

وتنفسوا الصعداء لما بلغهم أن القائد العام قد هلك! فالمدعي الحقيقي لم يتكلم إذن!... وتزايد اطمئنانهم إذ علموا أن دلكانو هو الذي عاد بالسفينة «فكتوريا»، دلكانو الذي كان شريكاً لهم في حادث العصيان بخليج سان جوليان. ولن يتهمهم دلكانو بجريمة كان شريكاً فيها، ولن يشهد عليهم بل لهم!

وأثبتت الحوادث صدق ظنهم...

نعم لقد أطلق سراح مسكيتا ومنح تعويضاً. ولكن الآخرين أيضاً خرجوا من السجن بمساعدة دلكانو. وفي غمرة الفرح العامة نسي الناس حادث العصيان: فإن الأحياء دائماً على حق والموتى هم المخطئونَ!

* * *

إن بيجافيتا يسكت ولكن هذا لا يمنعه من التفكير. وقد أدرك هذا الشاب المخلص الحساس مبلغ الظلم الذي يقوم في هذا العالم مقام القانون!... ولهذا، فإنه ينسحب بلا ضوضاء. وليضرب المتملقون في البلاط نطاقاً من الصمت حول ماجلان، وليتقدم إلى الأمام أولئك المتعطشون إلى التكريم!... أما هو، فإنه يعرف جيداً صاحب الفضل كله في النصر. وإذا كان لا يستطيع الآن أن يقول شيئاً، فإنه يعتزم، حباً للإنصاف، أن يعلن على الأحقاب المقبلة فضل المنتصر الحقيقي!

إن بيجافيتا، في وصف المرحلة الأخيرة، أثناء العودة إلى الوطن، لم يذكر مرة واحدة اسم دلكانو. وهو يلجأ إلى عبارات كهذه: «ذهبنا... وفعلنا... وقررنا...»

فلينل هذا المحظوظ إذن مكافأته من البلاط. أما مجد الرحلة ونجاحها، فمن نصيب الرجل الذي ليس في هذا العالم نوع من التكريم يكفي لمكافأته!...

وانحاز بيجافيتا إلى الرجل المغلوب على أمره، وكتب يمجد ذلك الذي أصبح في عالم الأموات، مدفوعاً بالإخلاص والوفاء. وقد جاء في مقدمة الكتاب الذي أهداه لرئيس جمعية فرسان رودس: «آمل أن لا ينطفئ أبداً مجد ذلك الربان العظيم. فبين الفضائل الكثيرة التي كان يتحلى بها، فضيلة واحدة جديرة بالقسط الأوفى من الإعجاب، فقد كان دائماً في أشد المحن وطأة، أكثر الجميع ثباتاً وحزماً، فاحتمل الجوع بصبر يفوق صبر الآخرين، ولم يكن على وجه الأرض إنسان أوسع منه خبرة في علم الخرائط وفن الملاحة. والدليل على ذلك أنه قام بأعمال لم يقم بها أحد غيره من قبل!».

* * *

كثيراً ما يكشف لنا الموت وحده عن السر الكامن في أعماق الشخصيات الفذة. فإن الناحية الرهيبة في مصير ماجلان قد تجلت في الوقت الذي انتصرت فيه فكرته. وقد قدر لهذا الرجل أن يحمل عبء مشروع عظيم، دون أن ينعم بنجاح ذلك المشروع. فالأقدار ادخرت هذا الرجل للعمل فقط، وهو الرجل الصامت العبوس المتحفظ، الذي كان دائماً على أهبة التضحية بكل شيء، حتى حياته، في سبيل تحقيق فكرته... فالاختيار قد وقع عليه ليضطلع بالمجهود لا لينعم بالنصر.

وكان القدر قاسياً على ماجلان بقدر ما كان ماجلان نفسه قاسياً على الجميع، ولم يحقق له غير شيء واحد، هو الشيء الذي طالما تاق إليه بكل جوارحه: اكتشاف الطريق التي تسمح بالطواف حول الأرض. أما اجتياز هذه الطريق كلها، فإن القدر يحرمه منه. فهو ينظر إلى إكليل النصر ويضم عليه أصابعه. ولكن، متى حاول أن يضع ذلك الإكليل على رأسه، فإن القدر يصيح به: «كفى!».

الفهرس

الكتاب للجميع

هكذا نريده؛ إيماناً بكونه قيمة تحتفظ بحجمها وفاعليتها مدى العصور.

وإذ شرعنا فعلاً بإنتاج هذه السلسلة من الكتب القيمة التي نشرت خلال العقود الماضية وتعذر وصولها إلى قارئ اليوم، فإنما نهدف إلى إشاعة المعرفة وتيسير وسائلها وتمكين القارئ من الوصول إلى الينابيع الفكرية ذات التأثير في حركة الثقافة وتاريخ الفكر، بأيسر السبل وأقل التكاليف.

ونأمل أن تكون سلسلة (الكتاب للجميع) إنجازاً فعلياً ووسيلة ميسرة تتيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة منفتحة على مختلف فروع المعرفة بكلفة لا تثقل عليه.

كل الأطراف المشاركة في هذا المشروع العربي متنازلة عن حقوقها لصالح القارئ

ISBN:2-84305-835-X

9 782843 058356



سلسلة كتب شهرية توزع مجاناً مع الصحف التالية

الصحيفة	البلد
الإتحاد	العراق
المدى	العراق
الأيام	البحرين
البيان	الإمارات
القبس	الكويت
السفير	لبنان
القاهرة	مصر

